AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01034 4343

Library of
The American University
at Cairo

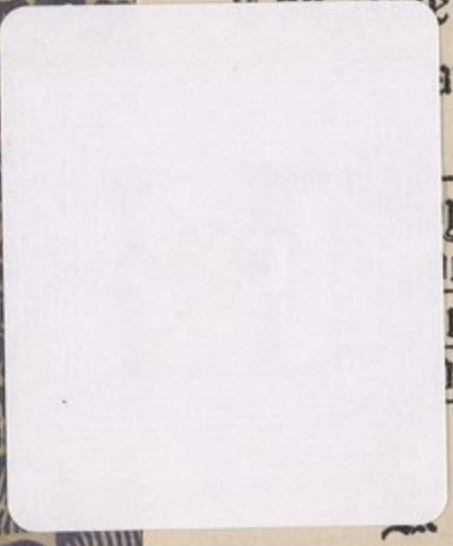

y is the man that
eth wisdom and
man that getteth
derstanding

PROVERBS 3-13

libris datis
in memoriam
James Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania

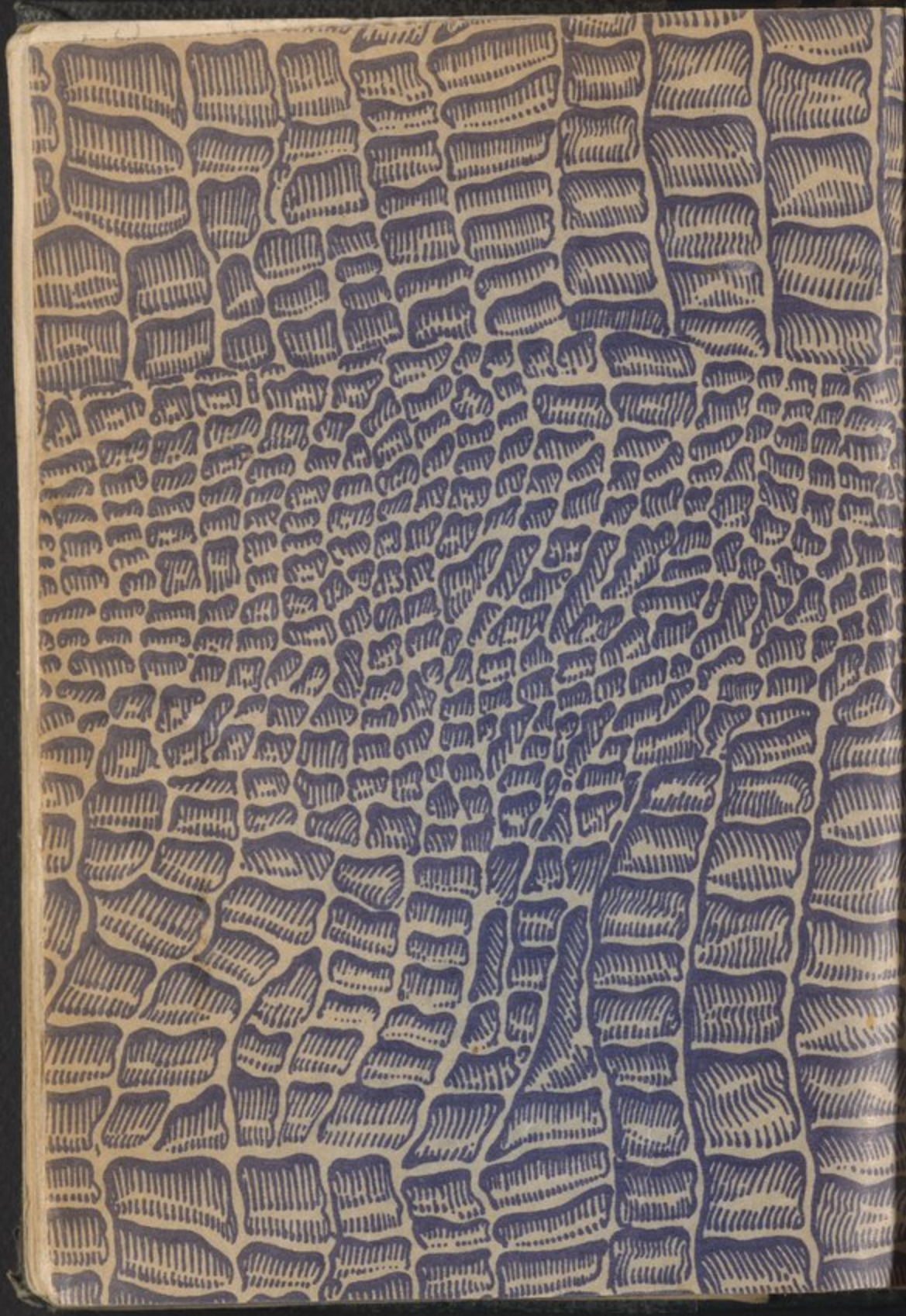

04-B5386

إذا كنت قد زعمت أن من سهل الأمور وأمتعها أن تكون ملكاً : إنك إذن لمن أشد المخطئين .

من لويس الرابع عشر
الى فيليب الخامس

تالله ، إن الملك ليرضى بالنزول عن نساء الأرض وغوانيها ، مقابل قصور فرساي ومغانيها ! . .

من رسائل دي بوسي بادبونامه

لو أنه لم يخلق ملكاً لاوتي مع ذلك تذوق المهرات والمسرات ، ولأحدث في ساحات الحب أشد الهرج والمرج ! . .

سانده سيموده

قيل للحجّاج : أيمازحُ الأميرُ أهلَه ؟ . . قال : ماترَوْني إلا شيطاناً ! . . والله لربّما قبّلت أخْمص قدم إحداهنّ ! . .

عرشُ قلبُ

للمؤلف

مدرسة النبوغ

التلميذة الخالدة ... ... (حياة مدام كورى) ... ...
حيـاة بلزاك ... ... (القصصى الأعظم) ... ...
حيـاة شللى ... ... (قبور فى جنة الحب) ... ...
حيـاة بيرون ... ... (دون جوان) ... ...
عرش وقلب ... (حياة لويس الرابع عشر) ...

شركة فن الطباعة

مدرسة المجتمع

أنا الشرق ... ...
رجال ونساء (١) .. ..
« « (٢) .. ..
حياة قلب ... ...
الموجة العذراء ... ...
المرأة لعبتها الرجل ... ...

شركة فن الطباعة

شباب الفولجا ... ...
جرائم شرقية وغربية ... ...
العاصية أو كتاب الغيرة ... ...
غانيات ... ...

مطبعة المعارف

مدرسة الحرب والسياسة

مأساة فرنسا ... ...
أسرار انهيار أوروبا ... ...
الرقص على البارود .. ..
الوحش الأصفر والدب الأحمر ... ...

شركة فن الطباعة

الطابور الأول ... ... مطبعة المعارف

الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

. . . .

باريس .. ..
ماقل ودل (فى جزءين) ... ...

مطبعة دار الكتب المصرية

تاييس ... ...
الزنبقة الحمراء ... ...
أفروديت ... ...
فى الحياة والحب ... ...

نفدت

طرطوف
عدو المجتمع
بتكليف من وزارة المعارف العمومية

عيد الذهب .. أخرجتها الفرقة القومية بدار الأوبرا الملكية

الصحافة المصرية منذ نشأتها إلى اليوم ... ... (باريس ١٩٢٨) بالفرنسية

[illegible]

احمد الصاوى محمد

DC
129
M8

علينا ، إذا ما أسلمنا قلوبنا أن نظل
مسيطرين تماماً على عقولنا .
لويس الرابع عشر

عرش وقلب

ملتزم النشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

923.1
L929S
Mck

٩٢٣٫١٤٤
صا ع

بعض المراجع

Louis Bertrand	*Louis XIV*
Louis Bertrand	*La Vie Amoureuse de Louis XIV*
St. Georges de Bouhélier	*Le Roi-Soleil*
Michel Glenne	*The Loves of Louis XIV*
Saint-Simon	*Mémoires*
Voltaire	*Le Siècle de Louis XIV*
Perkins	*France under Mazarin*
Arthur Hassal	*Mazarin*
F. Funck-Brentano	*Le Drame des Poisons*
Mme de Sévigné	*Lettres*
Louis XIV	*Les Pages Immortelles de... (choisies et expliquées par G. Boissy)*

25536

الغلاف بريشة الفنان المجرى الشهير

اريك دى مانيش

الكتاب الأول

١

بدأ يحب ، ناسجاً على منوال أهل العصر ، أى على نسق الحب الشائع فى تلك الأيام ، إذ يندر أن يحب المراهق أو الفتى حباً طبيعياً خالصاً . . الحب عنده ، غالباً — ولا نقصد الاشتهاء — محاكاة وتقليد . ومهما يكن صادقاً فى شغفه ، فسيمتزج دائماً بسذاجة حبه ضرب من الاهتمام بموقفه إزاء تلك التى يحب . . وهذا الموقف إنما يتكيف بما جرى به العرف فى زمنه ، على ضوء المطالعات الذائعة ، واللياقات الشائعة . .

هكذا أحب لويس الرابع عشر بادئاً ، تبعاً لقواعد الحب فى عهده ، وطبقاً لناموس المحبين . . .

ومن السهل وضع قائمة بأسماء فتوحاته الغرامية . فقد سجل المؤرخون لدون چوان الملك هذا غزوات كثيرة . إذا جئنا لأسمائها ، ضاربين صفحاً عن تلك التى كانت تلوكها الألسن فى البلاط ، رأينا : الكونتس دى بوڤيه

المعروفة بأنها أول من حظى بانعطاف الملك .. ثم مدموازيل دى لاموث هُدانكور .. ثم أوليمپ مانشينى .. ثم أختها مارى مانشينى .. ثم مدموازيل لويز دى لاڤاليير .. ثم مدام دى مونتسپان .. ثم مدموازيل دى تيوبون .. ثم مدام دى مونا كو .. ثم مدام دى سوبيز .. ثم مدموازيل دى لودر .. ثم مدموازيل دى فونتاج .. ثم .. ثم ...

وحسبنا ! .. فليس المضى فى سرد الأسماء إلا عبثاً .. بيد أننا إذا استثنينا أربع سيدات من هؤلاء ، أو خمساً ، فمن المستحيل القطع بأنهن كن جميعاً محظيات للملك .. أما المقطوع به فهو أنه ميزهن عن غيرهن . ولكن لا ندرى مدى ما ذهب إليه معهن فى الهوى الأعظم .. فلندع جانباً البدوات البسيطة ، والنزوات الطارئة ، ولنذهب رأساً إلى الأهم .. فمن الموثوق به : أن لويس الرابع عشر أحب من قلبه ، طوال حياته ، امرأتين اثنتين .. هما : مارى مانشينى ، و لويز دى لافاليير . وثانيتهما دون الأولى يقيناً .. فتلك العاطفة الثانية لم تكن إلا إحياءً للعاطفة الأولى واستمراراً فيها ، وامتداداً لها .. فلنسلم إذن جدلا بأن مارى مانشينى كانت هى أول حب للملك .. وكانت : حبه الوحيد ...

* * *

بدأ ذلك فى شهر ديسمبر من عام ١٦٥٦ .

لويس فى الثامنة عشرة . ومارى دونه بقليل . الأدب تجارتهما : يقرآن معاً آخر القصص والمآسى المشهورة ، ويتبادلان الرسائل القصيرة والملاطفات الصغيرة .. ثم يتدرجان إلى الحديث المسطور ، الشجى ، الطويل ،

تقول لنا مارى مانشينى ، فى مذكراتها ، إنها لما كانت فى « برواج » ، كان الملك يرسل إليها مجلدات برمّتها : « كان جلالته لا يفكر إلا فى أن يبعث إلى ببريد ضخم ، مكون من خمس رسائل ، كل رسالة فى عدة صفحات » .

ولقد كانا يقضيان الليالى بطولها فى التنزه والتغزل ، فى ضوء القمر . يركبان الخيل ، ويسيران ، جنباً إلى جنب ، فى خلال الغابات الكثيفة ، وعلى مدى الطرق الفسيحة . .

تلك كانت عاطفة فتية ، روائية ، يلعب دوره فيها كل من الخيال والصنعة والمباهاة ، وإن كانت على هذا كله دائماً فى اشتعال واضطرام ، وإن ظلت أفلاطونية ، عذرية ، كما تقضى به شهامة أو أناقة تلك الأيام ! . .

وكان الملك ، فى ذلك العهد ، شاباً قوياً مكيناً ، غليظ التقاطيع بعض الشىء ، عيناه أجمل عينين فى الدنيا . . نرى له لوحة تمثله فى ذلك الوقت ، وعلى محيّاه سمة الوقار ، ويبدو مشغولا ، إن لم يكن قلقاً . . . كان قد صار الرجل السياسى ، رئيس الدولة ، وقائد الجيوش الأعلى ، والذهن المنظم المحقق ، الذى سيعرف ، حتى فى عنفوان الهوى ، كيف يظل سيد قلبه وفكره .

ونرى له صورة أخرى فى ذلك التمثال النصفى ، الذى صنعه المثال برنان ، وفيه من الشعر والمبالغة والمثالية ، ولكن فيه أيضاً التعبير الصادق عن سطوة فذة ، عن الحالة النفسية التى كان عليها لويس يومئذ . . فجانب محيّاه « البروفيل » يشبه إلى حد غريب نابليون بونابرت فى مثل سنه ،

نرى فيه ما يدل على الجسارة والسيادة ، ونقرأ ، فى مقلتيه ، المحدجتين نحو هدف محدد جذاب ، حلماً كاملا بالمجد ، وتحت حنية ذلك الجبين ، وتحت قوسى حاجبيه الأوليمپيين ، تتجمع وتتجاذب ألوف الرؤى الشائقة . . لكن المحيا يعبر عن شىء آخر يختلف عن هذا كله ، فالفم على شىء من السمن ، يكشف عن اشتهاءٍ ولَعٍ ، كأنه ظمآن للقبل . . وطاقتا الأنف تخفقان ، والعينان تسبحان فى شوق وشبق ، والمحجران عليهما هالتا الصبابة القاتمتان . . ولا شىء مثل هذا الوجه يدل على ضنًى يكاد يكون مؤلماً ، ورغبة لا ينطفىء لها أوار . . . هذا بعض ما يكشف عن العاشق الفتىّ ، الذى هام بمارى مانشينى ولويز دى لافاليير . .

أما مارى هذه ، فهى بنت أخت الكردينال مازاران ، فتاة إيطالية ، سرعان ما تأقلمت فى فرنسا ، فى أقصر وقت . . تضاربت فى وصفها الأقوال . ولكن لا نزاع فى أنها لم تكن جميلة . قسا عليها بعض المعاصرين لها من المؤرخين ، فشبهها بخادمة فى حانة ، شبهها بخمّارة ، ولم يدار أو يبال . فهى عنده دميمة ، غليظة ، قاتمة ، زاعقة ، فالتة اللسان . . . قد يقول قائل إن هذا ، بلا ريب ، رأى همّاز مشّاء بنميم . لكننا نجد الملاحظة الدقيقة المتعمقة تبديها مدام دى لافايت ، وليست دون ذلك قسوة على الموعودة بأن تتربع على عرش قلب لويس الرابع عشر ، أعظم ملوك فرنسا : « إن مدموازيل مارى مانشينى ليست على أى جمال . وليس لشخصها أية فتنة . وليس لروحها من ذلك إلا أقل القليل . . على ما بها من تجاسر ، وتصميم ،

ومضاء ، واندفاع ، واستهتار ، وضلال ، وفجور : بلا كياسة ، ولا لباقة ، ولا لياقة » .

ومع ذلك ، فما أعجب الطبيعة التى تمنع ، ثم تمنح ! . . فقد جاء حين من الدهر على هذه المخلوقة ، القبيحة ، الثقيلة ، اكتسبت فيه ملاحة وإغراء . كان ذلك عند ما ألقى عليها غرام الملك سحراً . فتحولت العاطلة من كل جمال ، إلى خلابة ذات دلال ! . . ووقف البلاط مندهشاً إزاء تلك «الحمارة» الممسوخة ، وكيف راق وجهها ، وجمع بين براءة الطفولة وعتو الجبروت ! ثغر صغير ، وأنف دقيق أقنى ، وعينان سوداوان ، كأنهما الماستان ، وشعر كستنائى مدهش ، مفروق نصفين . . . ولا تتزين بأكثر من لؤلؤتين فى الأذنين ، وقلادة من اللؤلؤ . . .

هذه الفتاة تبدو عليها مخائل الذكاء ، والحذق ، وسعة الحيلة . . ولا بد من الاعتراف بأنها كانت فاتنة ، على الأقل ، فى تلك الحقبة من حياتها ، وهى التى انتهزها الفنان منيار فرسم لها فيها لوحتها المشهورة (الموجودة الآن بمتحف برلين ، وصورتها على غلاف هذا الكتاب) .

* * *

لم يكن الملك ، إذن ، سقيم الذوق عند ما اختارها . . رآها أول مارآها وهو ذاهب لزيارة والدتها ، مدام مانشينى ، أخت الكردينال مازاران . وكانت تلك السيدة ، يومئذ ، مريضة مرض الموت ، طريحة الفراش فى مسكنها بالدور الثانى من قصر اللوفر . واجتاز الملك غرفة مارى فى ذهابه إلى غرفة أمها . . .

وهكذا ألفى الشابان نفسيهما يتقابلان ، ويتحدثان ، ويعجبان ببعضهما . ولكن هذا الحب الذى نبت فى زحمة القصر القديم وزهمته ، أو قل : إلى جانب امرأة تحتضر ، لم يشب ويترعرع إلا فى طلاقة الهواء النقى ، فى الخلاء ، فى فسحة الحدائق والغابات الملكية ، فى كومبيين ، وڤانسن ، وفونتنبلو .

ففى ڤانسن كان خالها الكردينال مازاران قد شيد لنفسه بيتاً ، بل قصراً خلوياً ، على نسق الڤيلات الإيطالية الفسيحة ، مغطى الجدران بالمرايا (قلده فيها الملك بعد ذلك فى قصر ڤرساى) ، مزخرفاً بالخشب النفيس ، ملون السقوف بالرسومات ، واللوحات الفنية . . وكان ما يشرح الصدر حقاً ، غير ترتيب غرفه ، ذلك النور الساطع فى أبهائه يبهر الأبصار ، مما كان له أسعد الأثر فى لويس الفتى المراهق ، كلما غادر قصر اللوڤر العتيق المعتم . وكانت مارى ، العصرية فى كل حركاتها ومظاهرها ، خير من يجعل لبيت خالها هذا طابع الجدة ، والطرافة ، والصبا ، والإشراق . . فصارت فى عينى الملك الشاب حورية هذه البقاع الجميلة .

وخلال صيف ١٦٥٨ ، فى فونتنبلو ، كانا يلتقيان على حدة ، أكثر مما كان يتاح لهما فى ڤانسن ، أو اللوڤر . . وكأنما ببعض من يهمهم الأمر يحبذ لقاءهما . .

وخلا لهما الجو ، فإذا هما يمتطيان جواديهما فى الغاب ، ويتناولان وجبات خفيفة تحت الخمائل ، ويسيران جنباً إلى جنب بين الأدغال ، ويتنزهان فى دجى الليل على القنال الكبير .

وحمل الملك ذات يوم صاحبته على تسلق الصخور . . قالت مارى : « وكان ذلك مما يخذل الأذرع والسيقان ، بل كان مما يحطم الدماغ » . ولكن لم يبد على الفتى والفتاة أنهما تعبا ، أو خانتهما القوى .

ثم أمر الملك ، فجاءوا بالكمنجات ، وعزفوا ، ورقصوا على العشب الحنون ، حتى جن الليل . . .

* * *

وانتهيا بأن وقع كل منهما فى شراك صاحبه ، إلى حد أنهما كانا ، فى بعض الأوقات ، مهوّسين هوساً . . ولم يكن الأمر فى أوله إلا لعباً . كان لويس ينشد فى مارى حبيبة تشرفه . وعاطفة عظيمة ، جديرة بمكانته العالية ، وخليقة بالفارس النبيل ، أنبل فرسان المملكة . . ولم تكن مارى ، بادىء ذى بدء ، تنشد إلا أن تنتقم من أهلها ، الذين كانوا يستهينون بها ، وتنتقم خاصة من أختها الكبرى أوليمپ ، بأن تأخذ منها عشيقها . ذلك أن لويس كان قد بدأ بأوليمپ مانشينى ، يلقى عليها شباك الهوى . . فها هى ذى مارى ترى ، من وراء هذا الحب الملكى ، ثأراً ، ونصراً ، وكبراً ! . . تسحق أولا أوليمپ الشامخة ! . . وبعد ذلك سوف نرى ! . . ومن يعرف تلك النفس الطموح الجموح ، يستحيل عليه ألا يحكم عليها ، بأنها ، من اليوم الأول ، قد داعبت ، فى صميم ضميرها ، الأمل المرجو : أن تكون ملكة .

وإذا كان ذلك حقاً ، فهى قد حرصت على ألا يبدو للعيان : ففى خلال العامين الأولين من غرامياتهما العذرية ، ظلا فى الواقع لايريدان شيئاً غير أن يكونا حبيبين ، حباً روائياً ، خيالياً ، منزهاً ، كما فى قصص

العصر .. يجهد لويس جهده فى أن يبهر الفتاة بكل ضروب الشجاعة ، والإقدام ، التى تميز بطلا من أبطال الشباب ، ففى خلال حصار مونميدى ، عرّض نفسه ، عن طيبة خاطر ، للأخطار ، حتى يرى عينى مارى تتألقان ، إذ يروون أمامها حديث مجازفاته ووقائعه ..

استمع إلى « لاجراند مدموازيل » ، التى رافقت البلاط إلى سيدان ، تصف أحد هذه المشاهد : « وصل الملك إلى سيدان فى الساعة الثانية بعد الظهر .. وكانت الملكة الوالدة تنتظره على الغداء . أقبل عدواً ، ووصل مبللا ، موحلا ، إلى حد أن الملكة قالت لى ، وهى تراه بهذه الحالة من النافذة : « بودى لو لم تريه قبلما يبدل ثيابه » ! .. ودخل ، ومع أنه كان أشعث أغبر ، فقد وجدته مشرقاً بالصحة والإقبال .. وطفق الملك يروى أخبار مونميدى .. وأنه حدث ، فى ناحية من الغابات ، أن أطلقت العيارات النارية على مركبة فى موكبه ، فثقبها الرصاص ، وجرح السائق ... ولما سمع الملك دوى الطلقات نزل عن مركبته ، وامتطى جواداً ، وتغلغل فى الغاب ، حيث ضُبط عشرة أو اثنا عشرة من الرماة ، كانوا متربصين بين الأدغال »

لم تكن تلك الروايات الممتعة تروى إلا لتسمعها مارى ، التى كانت هناك فى غرفة الملكة ، تصغى ، وقد احمر محياها سروراً ، وارتعدت أوصالها تأثراً .. وهكذا يتفانى لويس فى تقليد أبطال القصص التى طالعها وصاحبته .. وكلاهما فيما يلوح ، مسلم بأن هذا الحب المندفع سيحدّ منه زواج أحدهما أو كليهما ، وأنهما لن يستطيعا أن يقترنا ببعضهما .. فليتزوج ، إذن ، كلاهما ممن يُفرض عليه ، وليمضيا فى تبادل الحب ، وارتشاف كؤوسه التى قد تسكرهما ، عندئذ ، فوق ما سكرا من رحيق الحب الطاهر ! ..

نقول ظل حبهما كذلك عذرياً إلى النهاية . . ويرى المعاصرون أن الأمر إنما مرجعه إلى مارى ، الطامحة ، الباردة ، التى عرفت كيف لا تجعل هواها هواناً . فى حين يذكر آخرون أنها كانت محروسة أشد حراسة ، على يدى شمطاء نكراء ، هى « (مدموازيل !) دى ڤنيل » ، زوجة قاض فى « إكس » ، كلفها الكردينال مازاران رقابة بنتى أخته : مارى ، وأوليمپ .

والحق أن الصدفة أيضاً لعبت دوراً غريباً فى إحاطة العاشقين برقيب من العفاف تعبت فى مراسه الأهواء ، إذ كيف يخلو فتى وفتاة ألهب الوجد قلبيهما بسعيره ، ويقضيان معا ساعات من النهار ، وأحياناً من الليل ، على انفراد ، دون أن يقع المحظور ، الذى يخدش الشرف ؟ ناهيك بطبع الملك الفتى الحامى ، وأهوائه العنيفة ! . . . لعله الأدب ، وروايات الحب العذرى ، هى التى هدت تينك النفسين إلى جمال الخيال ، وضللتهما عن الحقائق الجارحة ، وأبعدتهما عما لايمكن إصلاحه ! . . وعلى ذلك ، فالتفسير المعقول ، هو أن الملك احترم مارى ، وراعى كرامتها ، لأنه أحبها حباً كاد يكون تقياً نقياً ! . .

ومهما يكن ، فإن هذا الحب ، كما فى روايات العصر ، بدا بحيث يمكن التوفيق بينه وبين قران كل منهما بشخص آخر ! . . ولما جاء البلاط فى أواخر عام ١٦٥٨ إلى ليون ، لخطبة الأميرة مرجريت دى سافوى للويس الرابع عشر ، صحبت مارى مانشينى مليكها فى سفره ! . . لايفترقان خلال الرحلة ، ولا يعنى كل منهما إلا بصاحبه ، مما يدل على أن كليهما مسلم بأن : الحب شىء ، وزواج الملك شىء آخر ! . .

ثم حدث أن لويس لم يتزوج الأميرة مرجريت ، وكان لمارى بعض الأثر فى فصم الخطبة ، حتى لقد عاد من ليون مستقراً عزمه على الاقتران بصاحبته (مارى) ! . . .

ومع ذلك حُرمها ، ولم يتزوجها ! . . وكان هذا الحرمان ، ووفاة أمه فيما بعد ، أعظم حزن أصابه فى حياته . .

ألقى بنفسه جاثياً أمام والدته « آن دوتريش » ، والكردينال مازاران ، الذى كان يعارض فى هذا القران ، وسكب سيولا من الدمع . . ومرض من لوعته . . وبعد أحد تلك المشاهد المؤثرة ، قالت الملكة الوالدة لكاتمة سرها مدام دى مونقيل : « إنك لو رأيت الملك لأشفقت عليه » ! . .

وكان لويس مستعداً لكل شىء فى سبيل الزواج من تلك التى يحب : يفرض إرادته كملك !.. يحمل الكردينال ، ويحمل أمه ، على لزوم الصمت والتسليم ! . . ينفيهما إذا دعت الحاجة ! . . وهو يعرف أنه سيثير على نفسه الرأى العام فى كل مملكته ، ويتعرض لفقدان عرشه . . لن يهمه من هذا شىء ، على شريطة أن يتزوج مارى ! . .

هذا هو الوجد ، بكل فورته العمياء ، وخيالاته الشوهاء ! . .

على أن الأمور ليست من السهولة بهذا المكان . . فمهما يكن فى قلبه من الوله ، فهو لم يخضع لاندفاعه ، لأن مازاران يحول دون تهوره . . ولو لم يكن ثمة مازاران يعترض سبيل شهوته الجامحة . فإن هناك ضميره ، يحمله على العدول عن القران بمارى ، وينأى به عن ارتكاب هذه الحماقة . وسرعان ما تسلف لويس الشعور بالزعيم الذى كان فى أثوابه ، يشعره بأنه

فرق بقسوة بين العاشقين . ولم يكفه هذا ، بل عمل على إيجاد الشقاق بينهما ، ووفق : جعل مارى تصدق أن لويس يخونها مع أختها أوليمب (التى صارت كونتس دى سواسون) . وبعد ذلك ، لما خشى مغبة الصلح بين الملك وبنت أخته ، عرف كيف يقنع الملك بأن مارى مخبولة حباً بالبرنس شارل . فلم يحتمل الملك هذه الخيانة ، حقة كانت أو باطلة .

وما إن تحطمت أجنحة لويس الخيالية . المحلقة فى سماوات الحب ، فهبط إلى الأرض ، حتى بدأ يدرك ، شيئاً فشيئاً ، تلك التيارات التى تجرى تحت قدميه . . . وكانت النتيجة الأولى التى استخلصها لنفسه : أن الملك مستهدف دائماً للخديعة من أولئك الذين يحيطون به ، وأن لاشىء أصعب عليه من أن يجد الخل الوفى الذى يستطيع أن يثق به ثقة مطلقة ، أو الصديقة الأمينة التى يؤمن جانبها .. ثم نظر من زاوية أخرى إلى سلوك مارى فى هذه المغامرة ، فاستدل منها على أنه ما من امرأة يمكن أن تكون مخلصة معه ، إخلاصاً صادقاً مطلقاً ، باعتبار أنه : الملك ، والتاج ، والعرش ، وكل تلك المزايا التى لا يستهان بها . والتى يُعشق من أجلها . . وعلى ذلك ، فليلزم جانب الحذر من النساء ، ومن حب النساء .

وأخيراً ، دله تملص مارى منه ، وبعدها عنه ، على أنه ما من امرأة ترتضى أن تضحى بنفسها فى سبيل الدولة . . فى حين أنه ، هو ، قد تقبل هذه التضحية باستسلامه للزواج من « مارى تريز » . . أما مارى مانشينى ، فعلى العكس منه ، لم تسلم بحق الدولة على الملك . فتحولت عنه ، وصدت ، حين رأت أنه لا يستطيع العقد عليها ، والبناء بها .

ليكن إذن ! . . إنه لن يتمرد على ضرورات ظروفه القاهرة ، ولن يثور على قوة الحالة الراهنة ، ولن ينوء بتكاليف الحكم الباهظة . سيمضى حتى النهاية فى قبولها ، ما داموا ينشدون فيه الملك ، ولا يحبون فيه إلا الملك . . فسيكون ملكاً ، حتى فى الحب . وكأنى به يقول ، من الآن فصاعداً ، لخليلاته : « أحببنى ، إذا شئتن ، ولكن لاتنسين أننى الملك ، أىْ مخلوق محسوب على الدولة ، فى كل ساعاته ولحظاته ، وعليه أن يقدم أعز عواطفه للدولة قرباناً . وأنه مسئول أمام الرأى العام ، وأن الجمهور لا يغمض عنه بصره قط ، فهو عنده الجندى شاكى السلاح حارس الوطن . . . إنى مضطر إلى ضروب من الضيق والحرمان ، وإنى لمطيع لها ، مهما كبدتنى وأرهقتنى من أمرى عسراً . . فافعلن مثلى ، تضايقن ضيق ، وعانين حرمانى ، فأنتن لستن محظياتى فقط ، بل أنتن مكلفات بمهمة فى البلاط ، وأنتن وصيفات شرف ، ومن حاشية الملكة ، ودوقات . . وبهذه الصفة تصعدن إلى مركباتى مع زوجتى ، وتتبعننى إذ أتبع الجيش ، أو أذهب إلى الريف ، فتحضرن طعامى ، وتشتركن فى حفلاتى الراقصة وأعيادى ، حتى ولو لم تكن بكن رغبة ، حتى ولو كنتن مريضات . . ربما سميتن هذه المغالاة منى أنانية فظة . أما أنا فأسميها أداء الواجب . أجل ، ستفعلن مثلى : فأنا أؤدى الواجبات التى تفرضها على وظيفتى ، حتى ولو لم تكن بى رغبة ، حتى ولو كنت عليلا ، حتى ولو عرضت للهلاك حياتى . . . فلا تنسين أنكن محظيات الملك ، لا محظيات شخص ما من الرعية ، وأن الملك لا يستطيع مجابهة الرأى العام ، ولا أن يفضح نفسه لدى الجمهور بسيره وسلوكه . . . وعلى ذلك ، ستكون

غرامياتنا سراً فى الاتصال ، وسراً أيضاً فى الانفصال . ولن يكون من حقكن إثارة فضيحة ، عند ما أسلوكن ، أو أكف عن حبكن — لأن كل شيء بالطبع محتمل الوقوع — ولن يكون لكن أن تجعجعن بتوبتكن ، أو تشهرن بندامتكن ، إذا حدث ، عرضاً ، أنكن ندمتن على محبتى . ستمتثلن إذن صاغرات ، وتضبطن النفس ، وترفعن الرأس ، كما أفعل أنا ، وإذا شئتن العبارات الطنانة ، قلت لكن : إنكن ستصرن شهيدات المظهر ، كما أنا شهيده . . وليس من عظمة حقة إلا فى قهر النفس ، وكبح جماح الحس » ! . .

* * *

ومهما يخف من فكر لويس الرابع عشر ، فإن سلوكه الغرامى يدلنا على أنه هكذا فكر ، وهكذا فعل . بل لقد ذهب إلى أبعد من هذا . فلنحاول التنقيب إذن عن طيات ضميره الأخيرة : فمن المحقق أنه ، كملك ، كانت لديه فكرة عالية عن نفسه ، فإذا كان يعد وظيفته كتضحية دائمة للدولة ، فقد كان يقدر أنه ، هو الملك ، خليق بأن يُضَحَّى من أجله التضحية كلها . . فقد طالما قيل له إنه إله على الأرض ، مسيح حى . . فما دام المسيحى يضع هناءه الأعلى فى تضحية نفسه لربه ، فينبغى أن يضع سعادته فى فداء مليكه ، لأن مليكه هو مسيحه .

وأخذ لويس يكدح ، ويدأب ، دأباً متواصلا ، من أجل الآخرين ، من أجل المصلحة العامة . وهو لهذا يستحق بعض العوض ، بعض الجزاء . وهذا الجزاء إنما يكون بتحمل الضيق من أجله ، والتضحية بالنفس فى سبيله ، إذا اقتضى الأمر . . وتقبل قسوته ، وخشونته ، ونزواته ، وبدواته ، وشخصيته الساحقة ، الطاغية شيئاً ما . . .

وبداهة أن مشاعر مثل هذه ، يصعب تبريرها وفهمها فى زمننا الديمقراطى هذا . . . ولكن لنذكر أننا كنا فى القرن السابع عشر ، وفى فرنسا ، وفى عهد عبادة الملكية : ونحن نحسب أن هذا نحو مما يرجح أنه خطر ببال لويس الرابع عشر . . بل إننا نذهب إلى القول بأننا ، فى أيامنا هذه ، ليس من النادر قطعاً ألا نلقى أنانية من هذا الطراز ، فى بعض الرجال الذين يظنون أنفسهم أبطالا ، وعباقرة ، وأنصاف آلهة . . .

ومع ذلك ، فمهما أراد لويس الرابع عشر أن يكون واقعياً فى الحب ، فارضاً إرادته وظروفه وملابساته على الحبيبات ، فقد كان ، خلقاً وطبعاً ، « مهيباً » بفطرته ، بحيث لن يحاول مرة أخرى ، أن يحب بأوسع معانى الحب الخيالى القصصى . .

وهكذا ، لم يغن حذره عن قدره . .

وبرغم تجربته الغرامية التعسة الأولى ، استرسل فى حب لويز دى لاڤاليير ، وأسلمها الفؤاد . . .

٣

نحب . قبل أن نسمع تراتيل الهوى الملكى الثانى ، أن ندع قلبه قليلا يستروح ، لنرى عقله : لنرى كيف يتلقى الملوك تربيتهم السياسية ، ليكونوا جديرين برسالتهم العليا : شرف و وطنه . . ثم نعود ، بعد ذلك ، إلى قلبه . .

لنستمع الآن إلى رأى « سان سيمون » مؤرخ بلاط لويس الرابع عشر ، فى مذكراته الشائقة : « . . . كان عقله قابلا للتكوين ، والتهذيب ، والتشذيب ، والاقتباس من الغير ، بلا تقليد ولا تحرج . . فانتفع نفعاً لاحد له بعيشه ، طوال حياته ، مع أناس توافر لهم ذلك كله . . هم من كل لون ، ومن رجال ونساء ، ومن كافة الأعمار ، ومن جميع الأشكال ، ومن كل الأحوال . . . »

ومع ذلك لم يكن لويس مقلداً صرفاً ، أو محاكياً بحتاً . إن له طابعه الذى سيضفيه على ما حمل إليه معلموه ومستشاروه من تربية وتثقيف . . إن له عبقريته المؤاتية ، وشخصيته البارزة . وسيعرف كيف يصقل هذه وتلك بالاحتكاك ، مدى حياته ، برجال عظام . كان يحب العقل الجميل ، وآيات الذكاء اللامع ، ولا يحب الجهر بالسوء من القول ، أو الغيبة والنميمة ، أو النقد الحسود ، أو التشكك الهدام . إنه هو البنَّاء الأعظم . يعرف كيف

يتمم البناء المشمخر ، ويستخلص من الرجال خير ما يستطيعون ، وأبعد مما يستطيعون . . .

ويقف الكردينال مازاران ، بين أولئك الذين ساعدوا لويس على تكوين نفسه ، فى مكان علىّ . فكان له المعلم الأول ، والموجه الأعظم ، وكان رائده ، وكان أباه الروحى . . وإنها لعناية الله حقاً ، التى جمعت بين هذين الكائنين .

* * *

من هو إذن مازاران ؟ . . هذا الإيطالى ، ذو الثوب الأرجوانى ، والأوضاع الفاتنة الصامتة ، هذه الشخصية الجذابة الساحرة ، التى أوصى بها ريشليو ، وهو على فراش الموت ، لويس الثالث عشر ، فاتخذ منه وزيره الأول . ثم لما قضى الملك نحبه ، لم تتوان آن دوتريش ، الملكة الحسناء ، عن أن تجعل منه عرّاب ولدها ، الملك لويس الرابع عشر ، وحاكم فرنسا الفعلى .

حين ظهر مازاران لأول مرة فى البلاط ، بهر لمرآه وزراء لويس الثالث عشر الشيوخ . . رأوه فأكبروه . . صوره لنا أوليڤييه دورمسون فى مذكراته : « . . . طويل القامة ، مزدهر الصحة ، جميل الطلعة ، كستنائى الشعر ، عيناه تقدحان حياة وذكاء ، مع حلاوة فى المحيّا ترتاح لها القلوب »

هذا الحبر الأعظم ، الكاثن السابق فى مدفعية الجيش البابوى ، كان من أرق الناس حاشية ، وأرشقهم مظهراً . . تربى فى روما ، بكلية اليسوعيين (الچزويت) ، وأتم دراسته فى إسبانيا بجامعة ألكالا . . عاش فى روما : المحور المختلط ، مركز الفن والحضارة . ثم فى إسبانيا : أغنى البلدان ، وأعزها

أبّهة ، فاكتسب أرق وأرقى ما فيها . وأخذ منها ـ فضلا عن رقة الحاشية ، ودماثة الطبع ، والمرونة والليونة ـ ثقافة الجمال ، وتذوق الاشتهاء ، ونمطاً من الاستمتاع بالحياة ، وتزويقها ، وتنظيمها ، وإلى هذا كله : التحرر من تقاليد عتيقة ، وهو الطابع الذى يميز الرجل الذى سافر وتنقل بين البلدان ، واستنشق هواء أعظمها تقدماً ، وأسبقها عمراناً ، بحيث صار جزءًا منه لايتجزأ : أن يسبق زمنه ، وأن يعلوه بالذوق والمزاج والفكر جميعاً ، ولو كره المحافظون . . .

لذلك لانلبث أن نلقى الأوساط البرلمانية ، والوزارية ، مبهوتة مما تراه فيه ، ثم يطغى عليها الحقد والنقمة على هذا الأجنبي . ويتمخض ذلك عن حرب عوان ، بين حزب بلاط الملكة آن دوتريش ومازاران من جانب ، والبرلمانيين من جانب آخر ، مما سيظل ناشباً من عام ١٦٤٨ إلى عام ١٦٥٣ ! وهم يتسارعون قبل هذه الحرب الظاهرة إلى الحرب الخفية ، فينبشون ماضيه ، ويستخرجون أصله وفصله . وهم لايجهلون أنه من منبت وضيع . ليس هذا موضع شك . ولكن ماذا فعل الأصلاء بأصلهم الرفيع ، إذا ماهووا بخسة إلى الحضيض ؟ . . وفيم يضير الرجل الوضيع أن يرتفع ، ثم يرتفع ، ثم يحلّق ، ثم يشق طريقه إلى عنان السماء ؟ ! هكذا كان مازاران . فهو لم يكن أميراً من أمراء الكنيسة فحسب ، بل الولى الحقيق لدولة عظيمة ، وعشيق ملكة (وربما زوجها سراً !) . ولقد استطاع أن يزوج بنتى أخته من أمراء حاكمين ، أمراء من دم فرنسى صميم . ولو شاء لزوج الصغرى من ملك فرنسا ـ كما قلنا ـ فهذا الرجل ، الحديث النعمة ، هو مثل

جميل على اختلاط الطبقات وامتزاجها ، ثم الصعود غير المحدود الذى يتاح لمن أوتى الحكمة ، ولو كان من الدهماء .

ومع هذا العز المؤاتى ، والثراء الذى يخلب الألباب ، هل تراه بدّل جنسيته الإيطالية بالجنسية الفرنسية ، كما يقولون ؟ . . وهل تراه بلغ تلك الرتبة الرفيعة من الكهنوت ؟ . . وهل تراه تزوج شرعاً الملكة الوالدة آن دوتريش ؟ . . إن الرد على هذه الأسئلة لا يبدو سهلا ، وأكثرها يبقى بلا جواب . فالمؤرخون يؤكدون لنا أنه حصل فى أبريل ١٦٩٣ على خطابات اعتماد لتجنّسه ، سجلت فى البرلمان خلال شهر يونيه من السنة نفسها . ومع ذلك فعندنا رأى الطبيب الأديب جاى بتان عند موت مازاران : « لقد اكتشف هنا : أن الكردينال مازاران لم يتجنس بالجنسية الفرنسية . ويدعى البعض أنه كان يرمى إلى أن يصبح « بابا » ، وأن هذا التجنس يحول بينه وبين مطمحه . . . »

ثم كيف يمكن أن يعقد الكردينال على الملكة الوالدة وهو راهب ؟ . . اللهم إلا بمعافاة خاصة من البابا ، الذى يندر أن يرضى بالموافقة على ذلك . ثم لا يوجد قطعاً أى دليل على هذا الزواج . وثمة ألف دليل على أن الملكة الوالدة كانت هائمة بالكردينال أشد الهيام . والرسائل المتبادلة بينهما تفضح ، على تسترها ، غرامهما . . فقد اتخذا فيها تعبيرات للمودة المتبادلة ، وراء علامات اصطلاحية ، يصعب على غيرهما تحديد مغزاها . فقد كانت الملكة تقية . وكان الكردينال حَبراً من رجال الكنيسة . فعبارات الحب التى استخدماها يمكن أن تعد ، كما فى الكتب الدينية ، ذات مرمى روحى

قدسى ! . وهما يذكران فيها دائماً : « الروابط التى لا يمكن لشىء قط فصمها » . . .

وإذا سلمنا جدلا بأن هذه الروابط إنما كانت لصداقة خالصة ، أو لحب أفلاطونى نقى ، فمما لا نزاع فيه أن الملكة ألقت فى هذا الحب بنفسها ، وبمجامع قلبها ! . أما مازاران فكان أشد منها ، بما لا يقاس ، تحفظاً وتحرزاً . وحاولت آن دوتريش ، لدى صديقاتها اللواتى عتبن عليها ميلها إلى الكردينال ، أن تضفى على عاطفتها صبغة بريئة ، محتجة بأن هذا الرجل الجميل لا يميل قط إلى النساء . . وبداهة أن مازاران كان يقابل حب الملكة العظيم له بالتفانى المطلق فيها . . كتب فى مفكراته بتاريخ ٢٠ و ٢١ مايو ١٦٤٣ : « أريد أن أكون لها الخادم المطيع . . وقد فكرت جلالتها فى أن تكلفنى بخدمتها ، وأن تكون حجرتى عندها ، وأن أتولى إدارة مصروفات جلالتها السرية . . . »

وهكذا لا يريد مازاران ، بادئاً ، إلا أن يكون خادماً ، يقسم لمولاته على الوفاء فى كل امتحان . وهو يقدم فروض الولاء الذى كان ملوك ذاك العهد أشد ما يكونون حاجة إليه . . على هذا التفانى العبودىّ منه ، وعلى هذه الثقة المطلقة من الملكة ، أقام ذلك النابولى اللبق ثروته وسلطته .

* * *

لكن كيف كان موقف الملك الشاب من هذا الرجل اللين العريكة ، الحصيف ، الكتوم ؟ . . من المحتمل أنه كان ينقم على الكردينال فى قرارة نفسه سلبه منه قلب أمه . ولكنه كان يدرك أنه يستطيع الاعتماد تماماً على

هذا الأجنبي ، وأنه مدين له بتاجه ، وربما بحياته . أما مازاران فقد انحنى من جانبه على هذا الملك الصبي بعناية أبوية . . كان : هو ، والملكة ، والملك ، يكوّنون ثالوثاً لا انفصام له ، متحدين فى شبه عهد عائلى . ومهما يكن رأى الملك فى وزيره ، فقد كان عارفاً بجميله ، إذ وضع فوق كل شيء سلامة الدولة . فاطمأن إليه ، واستسلم تماماً ، معجباً بحكمة هذا السياسى الألمعى وتجربته . يتلقى دروس أستاذه ، ويحذقها ! . .

* * *

وسكن مازاران ، منذ السنين الأولى لتوليه الوزارة ، فى قصر پاليه رويال ، قرب الملكة . . ثم صارت له ، فيما بعد ، شقته فى قصر اللوفر ، تحت مخدع الملك ، بحيث لم يكن يقطن قصره الجميل الذى أنزل فيه بنتىْ أخته ، وإنما يأوى إليه من حين إلى حين ، ليستروح بين آياته الفنية المدهشة ، التى جمعها بذوق مصفّى . .

وكذلك عاش لويس مع وزيره عيشاً يكاد يكون متصل الأسباب . . وكان ذلك للملك الشاب كنموذج يحتذيه ، ولا يكاد يغيب عن ناظريه . . ونحن ندرك مدى ذهول وإعجاب ذلك الفتى ، المفتون بنفسه شيئاً ما ، عندما يدخل مكتب عرّابه الجميل ، فيجده جالساً فى مقعده الكبير وعلى ركبتيه نسناستان صغيرتان ، أو لاهياً بجعلهما ترقصان وهما متنكرتان فى أزياء سيدات البلاط ! . . وفى ركن من القاعة ، مجامر يتصاعد منها البخور العبق ، يلقى فيها الخدم حبوب العنبر والياسمين . . . وفى الصيف ، تصفّ على منضدة ألوان الشراب المثلج الطهور ، على الطريقة الإيطالية ، كعصير الليمون

والبرتقال ، ومن كل الثمرات . . والمكان يتضوّع بألف رائحة زكية . . والكردينال نفسه يتضمخ بالعطور . ويعطر كل شيء حوله ، حتى قروده ! وكان يكلف راهبات إيطاليات بصنع بخوره وعطوره . . وكانت قفازاته الأسبانية مضمخة بالمسك . . وكان فذاً فى أناقته ، بحيث استنكر هذا منه المتزمتون ، وأخذوا عليه ميله لمسارح التمثيل والأوبرا والحفلات الراقصة . وكان يقرّب إليه المغنين والممثلين والراقصين . وكان الملك الفتى مهوّساً بهذا كله . وشعر بعرفان الجميل نحو وزيره الذى يحب هذه المسرات والأناقات المترفة ، التى هو نفسه مفتون بها . وليس يخفى مايثيره هذا الترف ، وهذا التفاهم ، من حقد وحسد . . ولكن الكردينال كان يترفع عن حسد الحاسدين وملذات التافهين . .

كان خبيراً بالموسيقى ، مولعاً بها . . . وكان من هواة الكتب الجميلة ، والتماثيل ، واللوحات ، وتحف الفن من كل نوع . وكان ، كمواطنيه ، يحب البناء البديع ، والخيول الكريمة . . جعل مكتبته مضرب الأمثال . وجعل قصره من قصور ألف ليلة ، يدفع ألوف القطع الذهبية ثمناً لرخامه الأثرى ، ومكاتبه الآبنوس ، ومناضده المرمرية ، « المحفور بعضها على أشكال العصافير » . . والمنضّد غيرها بالأحجار الثمينة وعروق الذهب . . والمتخذ غيرها من الفسيفساء ! . . هذا ، إلى مراياه ، وكؤوسه الڤينيسية ، وأسرّته العاجية . . . و . . . وكل ما يمكن أن تبدعه الملائكة ، وأن تبتكره الشياطين ! . . قال مؤرخو عصره : « كان له ، فيما له ، فى مكان ما من هذه الدار ، كرسى انتحى به ركناً خفياً ، إذا ما جلس عليه ، تحركت زنبلكات

مجهولة ، فإذا ما شد إليه حبلا ، نزل ، أو صعد ، طبقاً لمشتهاه ! . . »

وربما تبادرت إلى الذهن أشياء وأشياء عن هذا الكرسى الذى حار فى تفسيره معاصروه ، فى حين أنه لم يكن إلا المصعد (الأسانسير) ، اخترعه مازاران لقصره ، قبل مهندسينا بمئتين من السنين ! . .

وكذلك كان الكردينال مغرماً بالحفلات العظيمة ، التى كانت تمهيداً لأعياد فرساى التاريخية ، لا يدخر فى هذا الشأن مالا ، هو ، الحريص ، كان يحب أن يبهر سادته الملوك ورعاياهم ببذخه وكرمه ! . . .

سينتفع لويس بهذه الدروس ، ويتذكرها ، كما يتذكر تلك « اللوتريا » — اليانصيب — التى كان يقدم فيها الكردينال لضيوفه ، احتفاء بمليكه ومليكته ، أثمن الهدايا . . وكان ذلك شيئاً طريفاً فى بلاط فرنسا ، كان بدعة إيطالية . . وسيكون الملك فى هذا ، وفى غيره ، من الهوس بالعطور ، إلى تشييد المبانى والقصور ، وإحراز اللوحات والتماثيل والتحف والأثاث النفيس ، وفن تجميل الحياة وجعلها شائقة ، سيكون الملك فى هذا ، بلا ريب ، المريد العبقرى لمازاران ، والتلميذ الوفى . . .

* * *

لا مشاحة إذن فى التأثير الذى شمل التلميذ من أستاذه . . وكان بينهما يقيناً الكثير من الروابط الروحية . وإن كانت بينهما اختلافات عديدة . مثال ذلك أن لويس الرابع عشر ، مهما قيل فى تصرفاته وأعماله ونزواته ، كان ، فى صميمه ، متديناً تقياً . أما تدين الكاردينال فموضع الأخذ والرد ، ولا يمكن القطع به ، أو الاعتماد عليه . وكان أعداؤه يرددون أنه لم يكن

مسيحياً إلا شكلا ، وأن أخلاقه ، كسياسته ، دنيوية بحتة . . والحق أنه لم يكن فى الدين من المتهوسين . . ولما كان على فراش الموت ، رآه الأسقف دى شوازى ، فكتب : « لقد مات فيلسوفاً أكثر منه مسيحياً . . . مات بثبات عجيب ، وطمأنينة جاءته ، كما كان يقول ، من براءة حياته الماضية »

وقد تأثر لويس الرابع عشر ، على رغمه ، بمشاعر وزيره وأستاذه ، فتجنب المتقين الورعين ، طول حياته ، وكان منهم على حذر . فإن مازاران لم يكد يتولى الحكم حتى صار له الأتقياء أعداءً . فدوّن فى مفكراته : « إن الأديرة كلها تناصبنى العداء ، ولا سيما » قال دى جراس » . . إن هؤلاء الأتقياء ضعيفو الإيمان . . وهذا هو السبب فى أنهم يتخذون خدمة الله حجة ، وما هم فى الحقيقة الا أعداء لصالح الدولة . . وفى زمن الوصاية على ملك قاصر ، وبين مطالب الشعب ، والكبراء ، والبرلمانيين ، وعند ما تكون فرنسا مثقلة الكاهل بأكبر حرب خاضت غمارها ، تكون الحكومة القوية ضرورة محتمة لا غنى عنها . . ومع ذلك فإن الملكة الوالدة (آن دوتريش) تتأرجح . . إنها تلحق الشؤون العامة بالشؤون الخاصة ، ولا سيما شؤون الدين . . وكان عليها أن تعمل النقيض . . فإن حكومة هذه المملكة وتربية الملك هما الواجب الذى ينبغى لها أن تجعل أداءه فى المحل الأول ، وعليها أن تقتنع بأن اللحظة التى تكرسها من وقتها لهذا الواجب ، هى أحب إلى الله من ساعات تقضى فى الصلاة ، وزيارة الكنائس ، وحضور القداس صباحاً ، والتهجد مساء . . . »

أليس هذا القول يفوح زندقة وهرطقة ؟! ولكن أليس الحق ، سياسياً ،

مع مازاران ، غير منازع ، ضد هذه العصبة التقية ؟.. فقد أرادت هذه العصبة أن تحمله على الصلح مع إسبانيا ، وعلى حرب صليبية ضد الأتراك وضد البروتستانت . وكان غرضها الصراح أن تعيد وحدة المسيحية ضد الزنادقة والملحدين . . بيد أن خليفة ريشليو كان من الحصافة والإدراك بحيث لم يهوِ فى غمار هذه المغامرات .

وكان لويس الرابع عشر يرى رأيه . كان مثل الكردينال على حذر من مؤامرات المتقين ودسائس المتدينين ، يدافع بقوة عن الدولة الدنيوية ضد اقتراحات المتعصبين . وإن كان الملك ، على خلاف وزيره ، قوى الإيمان ، شديد التدين . وكان الكردينال قلقاً من هذه التقوى . لم يكن يريد تلميذه راهباً . . فجهد جهده فى أن يحوله إلى حقائق الوجود ، وواجبات الدولة ، وأن يطبعه بطابعه الدنيوى ، هو ، الذى يرتدى ، مع ذلك ، قباء القساوسة ! . .

فهذا الكردينال ، الذى يعد من أمراء الكنيسة ، كان أشد تعلقاً بطيبات هذه الدنيا ، وأشد ما يكون حرصاً على المال . ألسنا نراه ، عشية موته ، يزور للمرة الأخيرة متحف لوحاته الجميلة ، وهو يتوكأ على عصا ، ويجر قدميه المريضتين جراً ، ويتوقف أمام آية من آيات النسيج النادرة ، أو تحفة من التحف الثمينة ، ويتنهد من كبد حرّى ، قائلا : « أنترك كل هذا ، ونحرم منه !؟ . . »

وكان أعظم ما يحرص عليه الكردينال هو صحته . . فقضى عمره فى العناية بها ، وكان عبداً أعمى لأطبائه الذين انتهوا بقتله قبل الأوان ، مثله

فى ذلك مثل لويس الرابع عشر . . فقد تأثر الملك فى هذا أيضاً بأستاذه ، فكان يثق بالطب ثقة عمياء . . كما تأثر به فى حب المال حباً جماً ، يميل إلى كنزه ، ويتعلق بخيرات الأرض وطيباتها . . ولقد كان حقاً : « الملك الشمس » . . لو استطاع لحبس الشمس فى خزائنه ، لعل خيوطها تتحول أسلاكاً من ذهب ! . .

* * *

ولم يكن تأثير مازاران فى لويس الرابع عشر مجرد تأثير ، من قريب أو بعيد ، وإنما هو إمارة حقة ، دمغه بها ، وترك طابعها فيه . . لقد كان الوزير يعطى مليكه دروساً فى السياسة ، ودل التلميذ العظيم على أنه جدير بتعاليم مثل هذا الأستاذ الجليل .

فى ١٦٦٠ ، أرسل سفير ڤينيسيا إلى حكومته تقريراً عن ملك فرنسا ، جاء فيه : « . . . إن كل دلائل محبته تتجه فيما يلوح نحو الكردينال . فلا يكفى القول بأن الملك يعتبره وزيراً نافعاً ولازماً ، وأنه يحبوه بعطفه لمصلحته ، وأنه يترك له السلطة بحكم الضرورة . ولكن لا بد من الاعتراف بأن بين الاثنين — الملك ووزيره — ميلا روحياً ، وأنه تربطهما الزكانة والذكاء . وكذلك يرى الملك وزيره مرات عدة فى اليوم الواحد . . وفى جميع الشؤون ، حتى أصغرها وألصقها بشخصه ، يستشيره فيها ، أو قل يتلقى تعاليمه . . فإذا ماخوطب فى أمر من الأمور ، أو إذا ما سئل مرحمة ، أحالها إلى الكردينال . وأقصى مايمكنه عمله هو التوسط لديه . . . . فلا يكاد ينهض من فراشه حتى يذهب لمقابلة الكردينال ، سواء كان الكردينال

فى شقته باللوفر أو كان معتكفاً فى ذات قصره . كل هذا يجرى بلا رسميات ، على أبسط نحو يكون بين أفراد أسرة واحدة . . والكردينال لا يهرع لاستقبال الملك ، ولا يسير إلى توصيله . فإذا كان مشغولا ، تنازل الملك بالجلوس فى انتظاره . . وإذا كان مجلس الوزراء معقوداً ، بقى الملك لحظة ، ثم حيا الكردينال تحية الصباح ، وانصرف . . ولكن مسارّتهما تستغرق عادة ساعة طويلة ، وفى خلوتهما ينبئه الكردينال بكل شىء ، ويعلمه ، ويطبع أفكاره فى ذهنه ، بحيث يحيط جلالته بمهام الأمور ، ويستوعبها ، ويستخلص نتائجها . . . ولانزاع فى أن أستاذاً له هذا القدر العظيم لا شك سيتخرج على يديه ملك عظيم . . . »

هذا الوصف الشائق الغريب يكشف لنا عن روح الملك . فهؤلاء الأجانب البندقيون كانوا يرون فعلا ما لا يراه يومئذ الفرنسيون . كانوا أدق نظراً وأصفى فكراً . فما من شك فى أنه كان بين الملك والكردينال « سحر روحى » ، وقرابة فى الطبيعة والفكر . فهذا الملك ، نجل آنّا دوتريش ، وحفيد مارى دى مدسيس ، كان يجرى فيه دم إيطالى ودم إسپانى . ومن ثمّ نرى مدى الاتصال والتفاهم بينه وبين هذا الكردينال الناپولى . وكذلك كان بينهما ذلك « التجاوب الذكائى » . . وكان الملك الشاب شديد الاعتداد بكرامته ، قوى الثقة بقيمته الذاتية ، يجمع ، إلى هذا بين الحياء والحذر من نفسه . فمن الطبيعى أن ملكاً فتياً ، فى الثانية والعشرين ، يريد أن يتعلم صناعة الملك : يدخل مدرسة رجل من أعظم رجال السياسة ، فى عصره .

لـكن هذا التلميذ نافد الصبر ، يريد أن يحكم بنفسه . وبلاده د اقيلية . أن يحكم ، ولفيف من الأعداء يثيرونه على الـكردينال . بيد أنه يترم نة السلطة ، ويستمع إليه طائعاً .

والسفير البندقى : يلقى فى روعنا أن الملك يفعل ذلك مخافة واحتياجاً : «كان الملك يخاف ، إذا ما ذهب عنه وزيره ، أن تعود الحرب الأهلية التى نشبت فى فرنسا ، فى حداثته ، بين حزب البلاط (آن دوتريش ومازاران) من جهة ، والبرلمان من جهة أخرى ، تلك الحرب التى استعرت سنين عدة . وكذلك كان هذا من جلالته اعترافاً بالجميل ، وتقديراً عميقاً وإعجاباً صادقاً بكفايات الـكردينال السياسية ... وحدّث ولا حرج عما أظهره من الوداعة والخضوع ، هذا الحاكم المطلق غداً ، نحو وزيره ، يجلس فى انتظاره على باب مكتبه ، وهو فى ذات قصره ، ويدخل ، ويخرج من عنده ، كأى كان ، كما لو كان قد ألقى وراءه ظهرياً بكل عجرفة ، بل بكل كرامة . على أن هذا الاحترام والتوقير منه لأستاذه ورئيس حكومته ، لا يمكن إلا أن يضفيا جلالا على جلاله ، وتمجيداً لخلقه ، يشرّفه على مدى الدهور » . .

هذه التفاصيل التى رواها سفير البندقية تعود إلى عام ١٦٦٠ ، قبل وفاة الـكردينال بعام واحد . فكأنى بمازاران لم يرض إلا فى اللحظة الأخيرة بالـكشف لمولاه عن أسرار الحكم . والشهود المعاصرون على اتفاق فى هذا . فهل كان مازاران لا يتعجل قصداً نضوج لويس الرابع عشر سياسياً ، حتى لا يسلمه مقاليد الأمور ، فيتجرد عن سلطانه ؟ . . الحق

فى شق الكردينال بسوء القصد ، ليس هناك ما يقطع به ويبرره . ففيه من علم وفيه أيضاً من « لا » . ويمكن أن نفسر دقة مركزه وتقلقله ، بأنه وزير اجنبي يحكم بلاط فرنسا . تعتمد سلطته كلها على حب الملكة إياه ، واعتراف الملك بفضله ، وهى عواطف سريعة العطب ، قريبة التغير والزوال . فكانت سياسته الشخصية ترمى إلى هدفين : ألا يستغنى عنه حُماته وسادته ، وأن يكون مهيب الجانب ، بل مخوفاً .

على أن هذا الداهية الخبير بالرجال ، كان من البصر بحيث لا يخفى عليه أن الملك الشاب ، من خلال قناع الصمت والوداعة ، يخفى حاجة ماسة إلى السيادة والسلطان . فهو ، إن قريباً وإن بعيداً ، سيقرر شكره على خدماته .. أو ليس الأولى به المبادرة إلى التسليم برغبات الملك ، قبلما يجابهه الملك بأمر واقع ؟ . وكان رأيه أن تلميذه سيكون ملكاً عظيماً : « لويس من نسيج يكفى لصنع أربعة ملوك ورجل شريف » ! ..

لكن لم ينتظر الملك دعوة مربيه إلى تولى أمره ، فطفق يدرس كل شيء ، ويستعلم ، ويسأل كل الإخصائيين والأكفاء ، ويجتهد فى تحريض السفراء الأجانب على الكلام ، محاولا أن يستفيد من هذا كله ، ويتقرب إلى الجميع .. وظل يتلقى الدروس من أستاذه ، ولو جاءت متأخرة . . .

* * *

إنها لفرصة عظمى أتيحت للويس الرابع عشر : أن يلقى مثل هذا الأستاذ . فما من أحد خير من مازاران يعرف أوربا السياسية فى عهده

وأسرار كل بلاط وقصر ومصر . وقد كاد أعداؤه يتهمونه بالمكيافيلية . والواقع أنه كان من خيرة مريدى ما كيافيلى . فراح يلقن تلميذه المرونة الدبلوماسية ، مع العزم وشدة المراس ، مما أدهش لويس وأثار إعجابه ، إذ وجد فى رجل الكنيسة هذا رجل دولة من أول طراز . . فهو يعرف الدنيا والدين ، ويعرف نيات الفاتيكان ، كما يعرف أسرار الدول . ولم يكن الناس فى فرنسا يكرهونه لأنه ليس فرنسياً فحسب ، بل لأنه أيضاً رجل دين . وهم يمقتون الوزراء القسس ، الذين هم ، مع ذلك ، خيرة من تولوا الحكم ، سواء بتربيتهم ، أو بذكائهم ، أو بثقافتهم الواسعة ، أو بمعرفتهم معالجة النفوس ، أو بزهدهم فى متاع الدنيا . . غير أن هذه الحجج كلها لم تغير شيئاً من حذر الفرنسيين منهم . فنشأ لويس الرابع عشر حريصاً على إرضاء أمته ، فلم يتخذ قط وزراء من القسس . . لقد رأى مازاران يحكم ، فخشى ، وهو الفتى الذى يريد أن يكون حاكما بأمره ، سلطة تبتلع سلطته ، وتستغرق دولته . . فأخذ عن أستاذه الكردينال معرفة الناس الذين يحيطون به ، وماجريات الأمور ، والمسائل الكبرى التى تغرق يومئذ أوربا ، وسجل كتابةً وصايا مازاران له وهو على فراش الموت ، ليظل يذاكرها . . وحفظ لأستاذه مقامه حتى اليوم الأخير . . مع أنه كان يعلم عن الكردينال ما هو خليق بأن يثيره وينفره ويفصله عنه تماماً : ضروباً من الغش ، والتجارة المدلسة ، واستغلال توريدات الجيش ، وما إلى ذلك . . لكن الملك كان من الحكمة بحيث يقدر أن أولى صفات الوزير هى أداء مهام الدولة . . فماذا يضير الملك والمملكة إذن مايضعه

هذا الوزير فى جيوبه، ما دام قد أنقذ الملكية ، وجعل فرنسا أقوى مما كانت؟!..

على أن الملك كان قد ملّ طول عهد الوصاية.. وأجمع المعاصرون على أن مازاران ، عند ما مات ، كان قد آن أوان موته .. وسنرى كيف انتفع تلميذه بدروسه ووصاياه ، حتى صار عصره هو : العصر الأعظم ، وحتى صار هو : الملك الأعظم ، ألمع وأسطع ملوك أوربا :

« الملك — الشمس : Le Roi-Soleil »

٤

اتخذت هذه القصيدة الجديدة إطارها بين فونتنبلو وڤرساى .. بين ساحات الصيد وحفلات الليل .. وكنا فى صيف ١٦٦١ . واشتد القيظ فى خلال يونيه ويوليه . وعاش البلاط ، الذى تبع الملك إلى فونتنبلو ، فى أعياد متصلة .. بين البساتين والجنات والغابات .. وكانت مدام هانرييت دانجلاتير ، التى اقترنت حديثاً بشقيق الملك ، هى روح هذه الحفلات ، ومثيرة كافة المسرات . كانت تذهب فى مركبتها كل يوم للسباحة ، وتعود على حصانها ، تتبعها سيدات البلاط ، فى ثيابهن المزركشة البهيجة ، بصحبة الملك وشباب القصر . وبعد العشاء ، يتنزهون على ضفاف القناة ، هزيعاً من الليل ، على نغمات الكمان . . .

وشاع أن الملك هائم بزوجة أخيه . وكان قد مضى على زواج لويس بمارى تريز عام واحد ، وهى مخلوقة دميمة ، لا ظرف فيها ولا ملاحة . ومع ذلك كانت حاملا ، حملا متقدماً . . فبحث الملك عن أسباب للسلوى فى غير الحياة الزوجية . فما أشذّ أن يلقى ببصره على هانرييت هذه « دوقة أورليان » ، التى بدأ بازدرائها فى أول الأمر . . وعيّر أخاه قبل اقترانه بها (وكانت نحيفة جداً) بأنه سيتزوج حزمة من العظام ! . .

لكن بضعة أشهر كانت كافية لأن تحول الفتاة الهزيلة العجفاء ، إلى

عبلة هيفاء . ولعلها بحثت ، كالملك ، عن أسباب للسلوى فى غير الزواج ، فقد كان زوجها أثقل القرناء . . . مالت إلى الكونت دى جيش ، الذى وصفته مدام دى لافاييت بقولها : « . . . كان أظرف أهل البلاط شكلا ، وأدمثهم خلقاً ، وأشدهم جسارة ، وأشجعهم فؤاداً . . يجمع الرفعة إلى الرقة ، والشهامة إلى الكياسة »

كان هذا الولع السرّى بهذا الرجل الجميل من العوامل التى كست عظام هانرييت لحماً ، ونضرت لها حسناً ، إلى حد أن الملك كان يراها تزداد كل يوم فتنة . . فيقول : « أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى ! » . .

وراح يتعرض لنار عينيها النجلاوين السوداوين . . .

أما هى ، وإن كانت مخلصة فى حبها للكونت دى جيش ، فقد سمحت للملك بالتمسح بها ، والتودد إليها . . وتذوقت لذة الانتقام من الملك ، لتوقحه عليها يوماً ما ، ومجافاته إياها . . وربما كانت ، فى تحولها عن دى جيش ، واستسلامها إلى زوج أخيها الملتهب شغفاً : واقعة تحت تأثير ملك لا يقاوم يومئذ سلطانه على الجنس اللطيف الضعيف ! . . ولم يفت لويس أن وراء غندرة هانرييت ألواناً من عدم الوفاء . . فى حين أنه كان يريد أن يُحَب ممن يحِب . يريد من خليلته عطاء تاماً خالصاً ، لا يقبل ما دون ذلك . الإخلاص فى العشق عنده فوق الجمال ، وقبل الدلال . ولم تكن هى فى الحسن من آياته . لكن ما توسمه فيها من ذبذبة ، وما خشيه من فضيحة ، ألقيا به فى غراميات أخرى . . لأنه كان يجزع أشد الجزع من الفضيحة . . الويل له من اللّغط الذى يدوّى فى البلاط ، وربما فى جميع أنحاء المملكة .

إذا عُرف عنه تعلقه بزوجة أخيه !.. وكانت أمه قد حذرته ، ثم أنذرته ، ثم ردعته عن جريه وراء الزوجة الشابة ... هذه الأسباب كلها كانت كافية لأن يحوّل هذا الزوج التعس بصره نحو : « لويز دى لا ڤاليير » : إحدى وصيفات شرف زوجة أخيه ! ..

لم تكن لويز هذه بالساحرة الجمال ولكنها كانت كريمة سيد صغير من أهل « تور » .. وفى وجهها آثار جدرى خفيف ، مثل لويس .. ولعل اشتراكهما فى هذه الصفة قرب بينهما ، فاشتعلا ! .. وكانت فضلا عن ذلك ناصعة البشرة إلى أقصى حد ، رموشها ثقيلة ، وفمها واسع ، ولا تكاد تستطيع إخفاء بعض العرج ! ... وفى مقلتيها أثر بكاء من شقاء . نظرتها حزينة ، وتقاطيعها قاسية ، وفى مط شفتيها مرارة .. كذلك صورها فنانو عصرها . أما أجمل صورة لها فهى أشد صورها جاذبية (ويراها قراء « عرس وقلب » على غلافه) .. وإذا لم تكن أقربها شبهاً بها ، فهى على الأقل أشدها تأثيراً ، وأبلغها تعبيراً عن نفسية لويز دى لاڤاليير .. رسمها الفنان « مينيار » : تمثلها وهى ترفع ، بحركة خفرة ، قطعة من قماش سقطت عنها ، كانت تخفى بعض نحرها . وهنا يتجلى لنا جمال عينيها الزرقاوين الساحرتين ، فيحجب عنا كل عيوبها الأخرى ، وينسينا إياها . شهد لها الأسقف دى شوازى ، وهو من ألبق الخبراء فى شؤون النساء ، بقوله : « إنها لم تكن من أولئك الجميلات الكاملات الجمال ، اللواتى نعجب بهن غالباً من دون أن نحبهن .. بل كانت على تلك الرشاقة الأجمل من الجمال ، والتى كأنى بها قد خلقت خصيصاً لها » .

هذه الفتاة التى ضنّت عليها الطبيعة بما حبت به كثيرات من أترابها ، هذه المخلوقة المغمورة ، الخجول ، لاح أنها ، هى أيضاً ، جعلت لتكون خليلة على هوى الملك . .

لم تكن من دوحة مجيدة ، فعرفت جميل سيدها ، وتعلقت به ، هو ، الذى تنزل والتفت إليها ! . . أما كيف كان ذلك فأمر عجب . . فإن زوجة أخيه أشارت عليه بالتظاهر بالميل إلى وصيفتها لويز دى لاڤالير ، ليبرر تردده عليها ، ومقامه بقربها . . فكانت تلك الفتاة ، رضيت أم كرهت ، تلعب دور حارسة الهوى وحاملة الشمعدان ! . . .

ومع ذلك وقع ما لم يكن فى الحسبان ، وما لم يكن يخطر للملك على بال : الحارسة الذليلة ، جعلت تستبد بالفؤاد ! . فتخبّط الملك فى شباكها . هام بتلك التى أراد ، وأرادت خليلته ، التستر على حساب سمعتها . . هام بها وتخلى عن شريكته فى المؤامرة التى فيها من القسوة ما فيها .

وبداهة ، ليس لنا أن نسأل طيبة ولا وفاءً ولا عهداً من ممثلى هذه المأساة العاطفية الصغيرة . فنحن هنا فى بلاد الحب ، حيث لا يعرفون شرعاً ولا فرعاً ولا إيماناً . ليس لنا أن ننتظر من أصدق المحبين إلا ضعفاً على ضعف ، وخذلاناً على خذلان ، وخيانة على خيانة ، وقسوة على قسوة . . وفى هذا الظرف ، كان الحب الجبار يعبث مرة أخرى ، ساخراً من ضحاياه ، لاعباً بهم ما طاب له ، على الرغم من نياتهم ومشاعرهم . فالملك لم يتحرج مطلقاً من خيانة زوجة أخيه ، التى خيل إليه أنه يحبها . . وهى تخون فى وقت واحد زوجها ، وتخون عشيقها الكونت دى جيش ، وتخون وصيفتها

لويز : إذ جعلتها تظن أن الملك يحبها . . . ولم تكن لويز ، وهى تعيش فى جو من الدسائس والفتن وثرثرة النساء ، لتجهل ما يراد منها ، ولم تكن لتتردد فى أن تؤدى مايطلب إليها . وكانت على أى حال ، تعرف أن البلاط كله يقول إن الملك يعشق سيدتها . . كان الملك عشيق زوجة أخيه على رؤوس الأشهاد . فلم تحل معرفتها بذلك دون أن تستولى على العاشق ، وتأخذه عن عشيقته ، التى هى أيضاً مولاتها ، والمحسنة إليها ! . .

وكان عذرها الوحيد ، وعذر الملك : أنهما تحابا . وهذا هو عذر الحب الوحيد ، وللحب قانونه النافذ ، وأحكامه التى لا تقبل نقضاً ولا إبراماً . . . وليس الهوى هوى إذا استطاع المرء له قسراً .

بيد أن لويس ، الحصيف ، البصير ، زعم أنه منذ الآن صار سيد قلبه ! . فهو لم يبحث ، قرب لويز لاڤاليير ، أو قرب زوجة أخيه ، إلا عن نزوة طارئة ، وبدوة عارضة ! . . فهو يتسلى بذلك ، ويروّح عن نفسه ، بين مهام الدولة الجسام . . لأنه ، حتى فى ذلك الزمان الباكر ، يعد نفسه لمهمته عبداً . قبل كل شىء : مهمة الدولة ! . . ولا يجوز أن يكون الحب للسلطان إلا لهواً . كان هذا رأيه ، يقول به لدى كل من يستطيع نقله إلى الرأى العام . وفى اللحظة التى بلغت فيها علاقته بلويز لاڤاليير مداها ، فى يناير ١٦٦٣ ، كانت أغانى شعرائه تُردد فى الحفلات قائلة :

« الراعى وإن كان فى سن الشغف والفتنة ، سن المسرات والملذات ، فلا تزعم أن العشق يغويه ويطويه ، فهو يعود دائماً إلى خِرافه ، ويرجع فجأة إلى دأبه وجهاده . . لن يستمرئ المقام ، وينام تحت الشجر ، أو ينسى

نفسه قرب راعية فاتنة ، بحيث يغفل عن الذئاب ! . . . »

وهو فى هذا الصيف المحرق من عام ١٦٦١ ، وبين كل هذه الغوايات : من جمال الطبيعة ، وسحر النساء ، وتيار الملذات ، أبعد ما يكون فعلا عن أن ينسى الذئاب الذين يتربصون بالدولة ، بل هو أشد ما يكون انشغالا : يعد العدة لطرد وزير ماليته وحارس بيت المال ، فوكيه ، ذلك الوزير الذى راكم ثروة طائلة بالحق وبالباطل وكان نصيراً عظيما لأهل الأدب أمثال : موليير ، ولافونتين ، وبليسون . فلم يكن طرده من الحكم والقبض عليه من هينات الأمور . . إن الملك يعرف وزيره قوياً مكيناً ، ويخافه الخوف كله ، ويريد أن يحتال ليجد إليه منفذاً ، قبل أن يجرؤ ويمد إليه بسوء يداً . فضلا عن أنه ، مهما بدا من هدوء أوربا فى هذه الآونة ، يتوقع اشتباكاً عاجلا ، لا مندوحة معه لفرنسا عن أن تكون شاكية السلاح . فعمل ، مع وزيريه كولبير ولوتلييه ، على تضخيم الدخل ، وتسليح الجيش ، واختزان المؤن والذخائر . . .

فى هذه اللحظة نفسها ، التى يعنى فيها بكل هذه الشؤون العاجلة ، الخطيرة ، هام بحب فتاة ريفية مسكينة ، وصيفة شرف ، تكاد تكون لزوجة أخيه خادماً ! . . . تعلق بها ، لأنه أحس لساعته أن الفتاة تحبه .

هذا الحب ، هذا العطاء بلا حساب ، له فى عينيه قيمة لا تقدّر .

أخيراً ، ها هو ذا سَيُحَب كما كان يتمنى من زمن طويل ، حباً خالصاً ، مع استسلام تام . . . وسيكون محبوباً ، لا لأنه ملك ، لكن لأنه هو ، لويس ! سيكون محبوباً مثل هؤلاء الشبان المختالين الفخورين ، الذين يسيرون

فى الأرض مرحاً بعد ما أطاحوا بعقول نساء بلاطه ، مثل : « الكونت دى جيش » ، و « ڤاردس » ، و « لوزون » . . : مثل دون چوان ! . . لأنه إذا كان ثمة شىء حق لا مرية فيه ، فى هذه المغامرة الغامضة ، فهو أن لويز أحبت لويس بمجامع قلبها ، وأنه بادلها حباً بحب . . أنَّى لهذه المسكينة أن تقاوم تقرب هذا الفتى المزهوّ ، فى الثانية والعشرين من عمره ، أعظم فرسان البلاط ، وأرشق راقص ، وأشجى محدّث جذاب ، وفى حديثه أحياناً من اللذع اللذيذ ، لا يباريه - كما يقول سان سيمون - فى الرواية إنسان . . هكذا كان هذا الملك فى ذلك العصر ، أو كان هذا بعض الملك الشاب .

إليك اعتراف « مدام » - زوجة أخى الملك ، وحبيبته السابقة - تفضى به إلى دوقة دى شڤريز : « تصورى أنهم يقولون إنه لم يعد فى الدنيا عنده غير تلك المخلوقة وحدها ، وأنه ينظر إليها بحب وشغف وهيام ، فى آخر لحظة كما فى أول لحظة من زيارته إياها عادة بين السابعة والثامنة مساء . وهو يضحى من أجلها بكل شىء ، وكأنه لم يعد متعلقاً بسواها . . وهو يحوطها بألوف وألوف من العنايات والمكرمات . . وبعد ، فإذا صدقنا كل ما تقوله مدموازيل دارتينى (كاتمة سر لويز دى لاڤاليير) ، كان الملك فى حبه لايجارى ! . . » . . فلما استدركت الدوقة دى شڤريز سائلة : « كيف ؟ . . حتى ولا الكونت دى جيش ؟ » . . أجابتها السيدة : « إن الكونت ظريف . . ولكن ليست له فى الحب مهارة الملك ! . . »

إن هذه الصورة ، قطعاً ، غاية فى الجمال ، وإن لم تكن طبق الأصل . غير أنه من المحتمل تماماً أن نساء ذلك العصر ، وخاصة لويز دى لاڤاليير ، كن

يرين الملك على هذا الغرار . . لقد أبدع هذا الملك طرازاً جديداً من « العاشق » . . زوّد قصص عصره ومآسيه ومهازله بطراز جديد من الرجال الذين خلقوا للهيام بربّات الحجال ! . . ولم يعد الطراز الذى أبدعه ، هو ذلك البطلَ العتيق الفصيح الثرثار ، المحلق فى جو جنونى من الأوهام والأشعار . بل هو : جندى مغوار ، يعود من ساحة القتال ، أو يستعد للعودة إليها ، وما زال يرتدى سترتها الخشنة ، وينتعل حذاءها الطويل الثقيل . . وهو ، على الرغم من هذه الخشونة ، يعرف كيف يكون رقيقاً ، حنوناً ، مهذباً ، جذاباً ، يمزج الروح بالحب ، ويسمو بعاطفته فوق عواطف المتحذلقين المتصنعين جميعاً . . فى هذا ، كما فى غيره ، كان لويس الرابع عشر ملهِماً عظيماً . . عرف كيف يوحى بقصيدة الحب لخليلاته ، كما يوحى بها لشعراء عصره ، فى وقت واحد . تكفى منه التفاتة ، أو لمحة ، أو حركة ، أو كلمة ، يلقفها أحد مصوريه ، أو مهندسيه ، لتكون إلهاماً يتمخّض بغرة من الغرر ، أو درة من الدرر . . وهو ـ الملك ـ يزهو فى « مذكراته Mémoires » بأنه : « جعل أجمل عبقريات زمنه : تعمل ، وتدأب ، وتفتنّ ، وتبدع ! . . . »

وكذلك حمل لويس على العمل والأمل كل نفوس اللواتى أحببنه ، وأشعل مخيلاتهن . . حتى لويز دى لافاليير ، هذه الريفية المعزولة عن روائع العزة والسؤدد ، التى لم ترد أن تكون إلا عاشقة متيّمة ، رأت فيه أكثر من عاشق لها ، رأت فيه الملك ، فأحبت فيه فرنسا كلها ، لأنه كان مجد فرنسا كلها . . .

ولابد من تبيان هذا لتفسير الهوس الغرامى الذى أصاب تلك الشقية ،

بحيث جعلها تواجه كل الفضائح ، وتصمد لها . . . هذه المفتونة الولهى ، الخجول عادة ، المفرطة فى التحرّز ، أصبحت زعيمة بأشنع ضروب الجرأة إذ أحست أن حبها مهدد ، فى خطر . . يا للتفانى على حساب كرامتها ! . . لقد تحملت ما لم تتحمله محظية ملكية قط . . أليس لدينا مثل على تهورها وهى فى ساحة الفلاندر ، أمام البلاط والجيش ، وتحت عينى الملكة نفسها : دفعت بمركبتها تطارد الملك ، متعطشة إلى أن تسترده ، تسترد العشيق الذى توشك امرأة أخرى أن تسلبها إياه ؟ ! أوَ لم تهرب مرتين من دير « شايو » ، فى لحظة من لحظات يأس الهوى ، أو فى فورة من فورات الغيرة المضنية ؟ ! أو لم تعاند ببقائها فى البلاط ، حتى بعد أن قاطعها الملك ، راجية دائماً أن تستعيد هواه . وتحملت مدى عشر سنوات أن ترى خصيمتها الفائزة ، مؤملة أمل إبليس فى الجنة ، حتى إذا ما جاءت الساعة التى خانتها فيها شجاعتها ، ولم تعد تطيق على هذا صبراً ، انطلقت : تجتاز ، للمرة الأخيرة ، عتبة الدير ، ليطبق عليها أبوابه إلى الأبد ؟ . . كيف ، إذن ، يمكن الشك فى عواطفها ، وهى التى ظلت ، طوال هذا الزمن المديد ، على خشب من التعذيب ، والنكد ، والغيرة ، والهوان ، تؤثر جوار الملك الهاجر على جوار الله ؟ !

أجل . . لقد ظلت باقية فى البلاط ، تقتات بالشجن ، إلى جانب مدام دى مونتسپان ، المرأة التى سلبت منها قلب الملك . . بقيت فى البلاط ، لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا فى جو يتنفس فيه المليك الحبيب . . وإذا كانت قد عادت من دير شايو ، واتخذت ثانية مكانها من القصر ، لا من القلب ،

وقضت ثلاث سنوات أخرى إلى جوار خصيمتها ، فذلك لأنها كانت تتمزّق لوعة وصبابة ، ولا تقنط من استرداد الغادر الهاجر ! . .

وزعمت ، لحظة من دهرها ، بكل هذا التفانى والوفاء ، أنها لامست قلب عشيقها السابق ، بشهادة مؤرخة عصرها ، المركيزة دى سڤينييه : « . . . بكى الملك أحر بكاء ، وبعث إليها وزيره كولبير ، يرجوها ، بإلحاح ، العودة إلى ڤرساى ، لأن لديه ما يقوله لها . فجاء بها مسيو كولبير . فحادثها الملك ساعة ، وبكى بكاء مراً . . وكانت مدام دى مونتسپان (العشيقة الجديدة) إزاءها ، مفتوحة الذراعين ، دامعة العينين . . وبدا هذا كله لغزاً معمّى . . البعض يقولون إنها ستبقى فى ڤرساى وفى البلاط ، والآخرون يزعمون أنها ستعود إلى الدير . . وسوف نرى » . . وبعد بضعة أيام ، ختمت المركيزة روايتها بهذه السطور الماكرة : « . . . أما السيدة دى لاڤاليير فنحن يائسون من إعادتها إلى الدير ، لأنها فى حنايا البلاط خير منها بين جدران المعبد . . فلا حيلة إلا التسليم بتركها حيث هى . . . »

والواقع أنها مكثت فى القصر زمناً آخر طويلا ، لا تستطيع البرء من داء هذا الحب العياء ، متحملة أشق الآلام ، لكى تحظى ، كل يوم ، برؤية ذاك الذى تحبه ولم يعد يحبها . . إنها كانت ولا ريب شقية غاية الشقاء ، تستحق الشفقة كلها . لكن أيمكن أن يقال إن الملك كفّ تماماً عن حبه لها ؟ إن ما نعرفه ، على أى حال ، هو أنه أبدى نحوها ، حتى النهاية ، لا الرعاية وحدها ، بل أشد الحنان أيضاً . . شوهد يستقبلها ، وقد عادت من دير شايو ، مغرورق العينين ، فحدثها طويلا . . ولا شك فى أنه قال لها

أرق الكلام ، وأشده تأثيراً وإقناعاً ، بحيث ارتضت البقاء . .

وبعد ثلاث سنوات ، عندما اعتزلت نهائياً ، فى دير الكرمليين ، لكيلا تخرج منه أبداً ، لم يكد الملك يفترق عنها إلا بعد مشهد مؤثر دامع . . قال أهل القصر : « . . . وكان ، بعد ذلك بساعة ، ما زال محمر العينين ! »

* * *

لم يكن لويس إذن فظاً غليظ القلب . وإن كانت لديه ، بلا شك ، فكرة عالية جداً ، عن نفسه ، كملك ، وتقدير عظيم لمقامه ، بحيث يعتقد أن الواجب يقضى بالتضحية من أجله عن طيبة خاطر . كان إنساناً ، شهماً ، حساساً ، إلى حد لا يرضى معه أن يؤلم قصداً امرأة هامت به ، ولم يستطع أن يتحلل منها إلا بعد القطيعة الظاهرة بوقت طويل .

وكل ما يروى عن خشونة لويس وجفوته ، لا ينهض عليه فى التاريخ دليل . زد على هذا أن غلطة الذين يحكمون عليه حكماً قاسياً ، هى أنهم ينسون التزاماته نحو « مهنة الملك » . فهو لا يستطيع أن يكون بمجامعه لمن يحب . فهذا يكلفه ما لا طاقة له به . وهو لا يستطيع التحرر من البروتوكول . حتى فى مسراته يلزمه البروتوكول ألا يستمتع بها إلا فى ساعة محددة . هذا ، فضلا عن أنه كان مضطراً ، ذراً للرماد فى العيون ، إلى أن يخفى غرامه الخائن ، تحت قناع من الجفاء والتحشم . . فليس لنا أن نغفل أنه رجل متزوج ، وهو نفسه يذكر ذلك جيداً ، لم ينس يوماً واحداً ، ما لم يكن فى جيشه ، أو ما لم يكن فى مرضه ، أن يؤدى واجباته نحو الملكة : لم يهجر مخدعها أبداً .

والحق أن الذريات اللاحقة أبدت تسامحاً زائداً مع لويز دى لاڤاليير ، بالنظر إلى ذلك المبدأ الرومانتيكى ، الذى يجعل للحب الحقوق كلها . وهى نفسها كانت شديدة الاقتناع بذلك ، حتى إنها ، فى أزمات يأسها أو نوبات غيرتها ، لم تتراجع ، أو تتحرج من إعلان حقوق حبها المزعومة وإثباتها . كانت تعلم أن الملك يرتاع من الفضيحة والضجة و « الشوشرة » ، ولذلك راحت تجرحه ، وتراكم المثالب والمطاعن ، مؤملة أن يرده إليها خوفه من المساءة والعار .

وهذا ما يفسر هربها مرتين من البلاط ، مما كان له دوى عظيم . وكان الملك لايشك فى أن هذا كله ليس إلا مفتعلا ، وأنها لاتلبث أن تعود ، بمجرد ما تنبس شفتاه بكلمة حنان . كان لايعتقد مطلقاً باستعدادها الدينى بحيث تعتزل العالم ، ولهذا وضع العقبات فى سبيل دخولها الدير . ولما أصبح عزم الفتاة اليائسة قاطعاً ، أحاطت كفارتها بمشهد مسرحى هجومى ، ساء الملك كثيراً ، أرادت به أن توقع الملام علناً على منافستها وحبيبها معاً ، لتلصق بهما تهمة الزنا المزدوج . وعلى ذلك نرى أن ما قادها إلى الدير هو مزيج عجيب : من الغيرة ، ومن السخط ، ومن الذل ، ومن الانتقام .. حتى وداعها القصر كان رناناً . أحست الحاجة إلى أن تترامى على قدمى الملكة ، وتسألها صفحاً وغفراناً ، أمام البلاط كله ! . . .

وبداهة أن لويس الرابع عشر زهد آخر الأمر فى هذه الخليلة الملحاح ، الكثيرة الضجة ، الثقيلة المقام .. فقد كان ينتظر من هذه المتيمة المحرومة كل ما يخطر أو لا يخطر بالبال .. سبحان الله ! .. يا للتناقض

الأبدى الذى يتنازع القلب البشرى !.. إنه لم يتجه إلى لويز دى لاڤاليير إلا ثقة منه بأنه يُحَب لذاته، وبأنه يجد ملجأ روحياً يأوى إليه .. وها هو ذا الحب المخلص نفسه، المجرد عن النفعية، هذا الحب الذى طالما حلم به وتمناه، يصبح أشد مايفصله منها، ويحوّله عنها !..

ورأى، على الأيام، أن تلك العاشقة الواهة، التى لاتريد أن تكون إلا عاشقة، صارت عبئاً باهظاً، ينقض ظهر شخصيته العامة .. فهى تشهد الناس عليه، وتورطه بلا انقطاع. ثم هى تنازع الدولة مليكها، تريده خالصاً لها !.. وأبدت عدم اكتراثها بـ « مجد » الملك، وهو أعز ما عليه فى الدنيا، وبعمله الشامخ كرئيس الجيش الأعلى، والبنَّاء الأعظم. إنها لم تكن ملهمة الأشياء العظيمة، ولا مغدقة آلاء الحمد والثناء، ولا المثيرة، المتحمسة، الناصحة لأعمال الكبر والزهو والفخر .. على حين أن الملك لايعيش إلا من أجل هذا ...

وإنه لمن الأسباب التى حملته على هجر لويز دى لاڤاليير، استسلامه لمدام دى مونتسپان، تأخذه منها، على عينها .. تلك المرأة الشائقة : « أثنائيس »، التى لاح له أنه وجد فيها روحاً ملكية حقاً، ونفساً على مثال نفسه !..

٥

فرنسواز — أتنائيس دى روششوار ، مركيزه دى مونتسپان : آية من آيات الأبّهة والحسن الظافر ، لاتقاس بها العشيقة المهجورة ، لويز دى لاڤاليير ، المتواضعة ، التى كانت تود لو أخفت هناءها ، وحجبت حظها ، عن حسد العيون . .

فاسمع إلى « پريمى ڤيكونتى » ، ذلك الإيطالى الأفاق ، الذى قضى شطراً من حياته فى بلاط فرنسا ، وعرف مدام دى مونتسپان عن كثب ، كيف يصفها لنا : « . . . شعرها أشقر كالذهب ، عيناها نجلاوان ، زرقاوان ، بلون السماء . . الأنف أقنى ، حسن الشكل . . الثغر صغير ، أحمر كالعقيق . . الثنايا كأجمل ما يكون اللؤلؤ المنضد . . محياها رائع الكمال ، وجسدها مدهش التكوين . . . » .

وثمة شهود عدول يزكون هذا الإطراء ، منهم « سان سيمون » الذى رآها : « . . . لطيفة ، خلابة . . تخفى رقة شمائلها ما فطرت عليه من التغالى وحب الظهور . . لها طابعها الذى يميزها عن سواها ، فلا سبيل إلى محاكاتها فى شىء ، أو تحديها . . »

كان الإجماع معقوداً على أنها أنصع بشرة من لاڤاليير ، وأن شعرها أشقر جميل ، ويديها بضّتان ناعمتان ، وذراعيها مرمريتان ، مما كانت المعشوقة المهجورة محرومة أكثره .

والحقيقة أن مونتسپان العظيمة كان فيها الكثير من الغانيات .. وهذا هو السبب فى أنها لم تكد تعرض للملك حتى اتصلت به ، ولم تكد تتصل به حتى أمسكت بتلابيبه ، ولم يكد يهم بها حتى شغفته حباً ، وشغفته عن طريق الحواس ...

* * *

إذن فهو البدن يتهافت على الاستمتاع بهذه الشائقة أتنائيس .. والتلميح يغنى عن التصريح .. وكان لويس ، عند ما هَمَّ بها وهام ، قد أشرف على الثلاثين ، فهو فى عزة رجولته ، وصولة طبيعته .. إن غرائزه الداعرة ، التى كبحتها تربية صارمة ، انطلقت حينئذ من عقالها ، لا تكاد تقف فى سبيلها إلا تلك الخشية من الفضيحة ، وذلك الوسواس الدائم على لياقة الملك ، وهما الصمامة التى تكبت ذلك الطبع الحامى ، وتحول بينه وبين الانفجاو بهوَس الهوى ، وتحول بالتالى دون اندفاعه وسقوطه فى وهدة من التزعزع والفوضى ، لا قرار لها ...

كان لويس ، فى تلك الآونة من حكمه ، خاصة ، شغوفاً بالشؤون العسكرية .. مشغولا دائماً بفرسانه ، وأزياء فرسانه .. لا يحلم إلا بالاستعراضات ، والمناورات الكبرى ، التى يدعو إليها سيدات البلاط .. كان لا بد له من عرض سطوته وسلطانه أمام النساء : يحشدهن فى المركبات الفخمة ، ويسوقهن معه إلى ساحة الجيوش ..

مارس (إله الحرب) يريد أن يرى فينوس (إلهة الجمال) فى معسكره .. قبلات على قصف المدافع .. مواعيد غرام قد تقطعها طلقة ! ..

وفى هذا وذاك يكون ، فى جوه الملتهب ، ينشد الجوى اللهيب . . .

فلنستمع إلى « لاجراند مدموازيل » ، تصف لنا تلك المعسكرات الأنيقة ، يقيمها البلاط من خلف الجيوش . . لنرى كيف كان ذلك ، فى حملة ١٦٦٧ ، وقد بدأ هيام الملك بمدام دى مونتسپان : « . . . وصلنا ليلا إلى حيث الجيش معسكر فى قرية تدعى : « كونتيش » . . فنزلنا فى بعض الأهراء التى طليت جدرانها . وبدأت الملكة تلعب . وذهبت أكتب خطاباً لأؤرخه من المعسكر . . واشتعلت النار فى مدخنة المطبخ ، مما أفسد العشاء . واستمر اللعب سواد الليل . . ونمت على كرسى . ونامت الملكة فى عربة الملك . . ونام هو فى إحدى خيام الجيش . . . »

وكانت تجرى باستمرار ، خلال تلك الرحلات ، مشاهد مثيرة ، مضحكة ، فلنسمع ثانية إلى « لاجراند مدموازيل » تحدثنا ، ونحن فى الفلاندر ، ولكن بعد ثلاث سنوات ، أى فى مايو ١٦٧٠ : « . . . الساعة الأولى من الصباح . وجدنا بيتاً حقيراً ، مكوناً من حجرتين فى برية . . وضعت الملكة قدمها على الأرض ، مستضيئة بشمعة ، تحملها لها مدام دى بتون ، بيدٍ ، وتسندها بيدها الأخرى . . وكنت أتبعها ، حاملة ذيل ثوبها . . فغاصت ساقاى فى الوحل حتى الركبتين ، فقالت الملكة : « يا ابنة عمى ! . إنك تشدينني ! . » . . فأجبتها : « يا سيدتى ! . . لقد سقطت فى حفرة ! . فانتظرى خلاصى منها ! . » . . وخرجت مبللة ، ولا حيلة لى فى تبديل ثيابى ، فتركتها تجف على بدنى . . وانزعجت الملكة مما نلقى ، فقال الملك : « لا بد من الانتظار حتى الصباح ، والاستراحة فى المركبات » . .

وقد كان : صفت العجلات ، وآوينا إليها . . وتمددت قليلا . . ولكنى لم أستطع النوم ، إذ كان الضجيج مروعاً . . . »

ولم يكن هذا كل شىء : ففى الغداة ، لم تكن المشكلة مشكلة النوم فحسب ، بل كانت مشكلة الطعام أيضاً . ويالها من مشكلة خطيرة تعرض لها راويتنا ، شاهدة العيان ، فتعطينا فكرة محزنة عن « التموين » فى الزمن الغابر : « . . . جاءوا يقولون لى : « الملك والملكة سيأكلان ! . . » . . فحملونى على كرسى ، لأن السير كان يستحيل علىّ ، وإلا غصت فى الوحل . . . وكانت الأكلة هزيلة : « تناولت الملكة شيئاً من المرق ، وشربت ما بقى بعدها فى الاناء »

ثم عرضت لنا مشغولية النوم ، المشغولية الكبرى ! . . قالت : « . . . وجدت الملكة محزونة أشد الحزن ، تقول إنها ستمرض إذا لم تنم . . وتساءلتْ : « أى معنى لمثل هذه الرحلات ؟ ! » . . فقال الملك : « ها هم أولاء قد جاءوا بمراتب » . . فقالت الملكة : « يا له من أمر شنيع ! . . ماذا ؟ ! . . أننام جميعاً معاً ؟ » ! . . فقال الملك : « . . أى ضرر فى أن نرقد على مراتب ونحن بكامل ثيابنا ؟ . . إنى لا أرى فى هذا ضيراً ولا غضاضة ! . . واسألى بنت العم ! . . فهى فى مثل هذه الشؤون الحكم العدل » . . فلم أجد ما أقوله فى منام عشر نساء ، أو اثنتى عشرة ، فى غرفة واحدة ، مع الملك وأخيه . . فرضخت الملكة . . وعندئذ انبرت مدام دى تيانج تقول ، وقد طرق سمعنا خوار الأبقار ونهيق الحمير فى إسطبل وراءنا : « لعمرى إن هذا يبعث فىّ التقوى ، إذ يذكرنى بمولد سيدنا المسيح ! » . قالت ذلك بلهجة حملت الملكة على الجهر بالضحك ، مما سر الملك ، الذى كان غاضباً من تبرمها وسخطها . . ثم . . نمنا . . . . »

فلنذكر أن بين النائمين والنائمات عاشقين . كانت مدام دى مونتسپان هناك ، فى الإسطبل ، أقرب ماتكون إلى الملك ، هى وأختها مدام دى تيانج !

هذه صورة عرضنا لها ، لكى يتغلغل القارىء الشرقى فى أحوال فرنسا القديمة وأخلاقها ، ولكى تساعدنا الصورة على إدراك لون من ألوان حميا الهوى ، التى كانت تسرى يومئذ فى عروق لويس الرابع عشر . .

إنه لم يكن الراعى الرقيق ، الذى ينام تحت شجرة ، ويضرب فى مطلع الفجر لحبيبته لحن الهوى على زمارة . . إنه كان الفارس المغوار ، الممتلىء بنشوة الحرب والحب ، يغنم بين قصف المدافع ودخان البارود لحظات عشق مغامر على قش الإسطبلات ، أو سابلة الزرائب ، أو فى بعض الأهراء فى الخلاء ! . .

* * *

ولكن هذا العاشق الفاسق لا يستطيع أن ينسى طويلا أنه ملك فرنسا . وهذا المختلس الهوى يريد أن يكون بطلا . لقد كان مارس ، إله الحرب ، أو أپولو ، إله الشعر ، المتوّج بالغار . . وشعره المشبوب فى ڤينوس ، إلهة الجمال ، لا يمكن أن ينتهى إلا على سرير من الأعلام المعقودة بالانتصار ، أو فى مركبة تشق ، فى ضحى الشمس ، غبار الجيوش وضرب النار . . .

بل نستطيع الذهاب فى القول إلى أننا إذا لم نر فى تلك العاطفة العاصفة ، التى تساور لويس الرابع عشر لمدام دى مونتسپان ، إلا نوبة عشق بدنى ، كنا من المخطئين . فهو لم يكن يحب فيها محاسنها الجسدية وحدها ، بل كان يتذوق حديثها ، ويستطيب دعابتها ، وخفة روحها . . كانت طويلة

اللسان ، هجّاءة ، لبقة . ولا يعزب عن بالنا أن الملك إن لم يكن عاطفياً خالصاً فهو صبّ ، يحب الحب ، ويتأثر بالعواطف الجميلة . أحب يقيناً مدام دى مونتسپان ، وإن كان حبه إياها من نحو آخر ، غير حبه لڤاليير ومارى مانشينى . ولكنه أحبها وكفى . . وعندنا الدلائل على أنه كان يتألم من أنها لم تبادله حباً بحب ، وصبابة بصبابة .

كتبت الأميرة بلاتين تقول : « إن المونتسپان مخلوقة ملؤها الأهواء الشعواء ، لاتستطيع أن تكبح لنفسها نزوة ، أو تكفكف من ميلها إلى كل ضروب التسلية واللهو . . وهى تتضجر من بقائها مع الملك على انفراد . . وهى لا تحبه الا حب نفعية وطموح ، ولا تعنى بشخصه فى كثير أو قليل . . ولكى تسرى عنه جاءت إليه بمدام دى مانتنون ، لكيلا يلحظ أنها عنه لاهية . . فى حين أنه ، على كثرة حبه الحياة المعتزلة ، يتمنى لو قضى وقته إلى جانبها . . وهو يعتب عليها دواماً أنها لا تحبه كفاء الحب . . ونشأ من ذلك بينهما اختلاف وتنافر وشجار . . . »

لئن كان علينا أن نقدر ، فى هذا الوصف ، أثر الغيرة من محظية الملك ، فلا شك أن فيه جانباً كبيراً من الحقيقة . ومانستنتجه منه خاصة هو تعلق الملك الشديد بمدام دى مونتسپان .

وبديهى أن حبه لم يعد الحب الحيي الخجول لشاب فى الثامنة عشرة ، الحب الخيالى القصصى ، الحب العذرى ، الذى حمله لمارى مانشينى من قبل . . ولا الحب المتفانى الحنون أحياناً ، المتهور الغيور أحياناً ، الذى حمله للويز دى لاڤاليير . . كانت عواطف الملك نحو مدام دى مونتسپان هى شيئاً أشد من ذلك كله تركيباً وتعقيداً . شيئاً مكوناً بادئاً ، كما رأينا ، من

ذلك الاشتهاء الجامح . . ثم من الكبرياء . فهذه المحظية جمعت فأوعت : فيها من ذلك الإشراق الساطع الذى يبهر الأنظار ، ومن تلك الفصاحة الخلابة التى تفتن الألباب ، ومن ذلك التبرج والترفع اللذين يدعوان إلى المهابة ، وفيها من خفة الروح ومفاتن الفكر ، كما لو كانت شاعراً ! .

للملك إذن أن يقر عيناً بالحظوة بها ، ويفخر بغزوها . ويدل بها على جميع الرجال . . ويجعلها تعجب إلى جانبه بمعجزات الفن والإبداع ، يبتكرها فى قصور فرساى ، ويجعل المواطنين والغرباء جميعاً يعجبون بها ، هى : آية الجمال الفرنسى والذوق المصفى ، التى وقع عليها اختيار مليكها ، فشغفته حباً . .

إليك ما كتبته مرة المركيزة دى سفينيه إلى كريمتها فى إحدى رسائلها ، فوصفت عودة « أتنائيس » الجميلة إلى القصر ، بعد اعتكافها لتضع واحداً آخر من أولادها العديدين : « . . . إن جمالها شىء يحير العقول . . خصرها عاد واهناً دون نصف ما كان عليه من السمن ! . . وليست بشرتها بأقل نضرة ، ولا عيناها بأقل لمعاناً ، ولا شفتاها بأقل توردا ! . . كانت تخب فى ثياب من شغل الإبرة الدقيقة ، وقد عقدت على شعرها أشرطة سوداء ، ولآلىء نادرة ، وتدلت من أذنيها ماستان لا حدّ لسنائهما . . : انها الجمال الظافر الذى سيخفى له جميع السفراء . . . »

وإذا كان لويس الرابع عشر يدرك ما كان عليه ، وما يمثله ، فلم تكن أتنائيس الجميلة تقل عنه إدراكاً لقيمة نفسها ، وثمن حسنها . لم تكن تحتفل بجمالها وحده ، ولم تكن تمجد كافة ما أسبغه الله عليها من آلاء الفكر

النبيل ، والروح الجميل ، وتلك الأناقة المطبوعة التى جعلتها تعنى بكافة ما يتعلق بالفنون والآداب . . . ولكنها كانت إلى هذا كله قوية الاعتداد بأصلها . تقول إنها سليلة أقدم الأسر فى البلاد : أدواق ducs d'Aquitaine ، وعلى ذلك تعد أعرق حسباً ونسباً من البوربون . فهى إذن ملكة فرنسا الحقيقية . . وليس أحفاد هنرى الرابع Béarnais إلى جانبها إلا حديثى نعمة ! . . وقد عرفت كيف تقنع الملك بكل هذه المفاتن ، وتبهره إلى حد اعتقد معه أنه مهما أدى ، فلن يكفى ما يؤديه ليكون جديراً بمثل تلك الحبيبة ! . .

وعلى ذلك بدأ يتحول . ولا مراء فى أن غرائز العظمة ، والإرادة الحازمة ، ورغبة السطوة ، وشهوات المجد : كانت كلها كامنة فيه . بيد أن الرغبة فى إدخال ألوان من الدهشة والعجب على نفس أتنائيس الجميلة ، ومضاعفة حبها إياه ، ألهبته ، ودفعته إلى إبراز مواهبه الطبيعية ، وميوله ، وجعلت عنده من المطامع الملكية ما لاعهد له به من قبل . إن للحب سلطاناً سيبرز من ورائه سلطانه ! . .

كان الملك ، قبل ذلك الحب ، وقبل تلك الحبيبة ، إذا ما تُرك لنفسه وميوله ، يبدو ملكاً مقتصداً ، إن لم يكن بخيلا . فها هو ذا تحول عن هذه النقيصة ، وتبدّل سخياً ، إن لم يكن مبذّراً ! . . أو لم نقل إنه يريد أن يبهر سليلة الأدواق العظام ؟ . . فلكى يزيدها بهراً ، أراد أن يكون سخياً ، يبذل النفس بعد النفيس . . حقاً ، إنه شجاع ، جسور ، على قوة خلقية تصمد لكل التجارب ، لكن لم تكن له جرأة فرنسوا الأول التى تبلغ الهوس ،

ولا اندفاع هنرى الرابع فى الحرب بجذل . . ولـكنه ـ وقد صار عاشقاً ـ سيصبح مقـداماً ، مقحاماً ، مخـاطراً ، معرضاً نفسه ، ولو بلا جدوى ، للقنابل خلال الحصار ، نازلا إلى الخنادق ، متهوراً أمام النار فى العراء ...

إنه دقيق الحساب ، عميق التفـكير ، شديد الهدوء ، كثير الرويّة ، متناهى الحذر ، بطىء التصرف ، لا يدع شيئاً للصدف . . وها هو ذا ، رغم احتفاظه بهذه الفضائل النافعة ، اتخذ مسلك الحماسة ، وسرعة القرار ، وقوة الاندفاع . . وجمع جنباً إلى جنب : سلطانه ، وغناه ، وبأسه ، وقوة جيشه . . يريد أن يحدث أثراً لا سبيل لأحد إلى الشك فيه ، أو مقاومته . وأفرغ جهده فى أن ينبه فى نفوس معاصريه ، وفى نفس خليلته أيضاً ، فـكرة أنه « **ملك عظيم** » ، بل « **بطل عظيم** » . ولم يخف أنه يريد أن يبدو ، على رؤوس الأشهاد ، هكذا فى عينى أتنائيس الجميلة ، وأن يتجلى هكذا فى فؤادها . . .

لسنا بذلك نريد أن نقول إن مونتسپان هى التى خلقت لويس الرابع عشر . أو أنهـا وحدها ملهمته الـكبرى . . لقد رأيناه من قبل يتفانى فى الظهور ، ويبدع فى السمو على ذات نفسه ، من أجل لاڤاليير ومارى مانشينى . ومن أجلهما أراد أن يكون جذاباً ، خلاباً ، كبطل من أبطال القصص ، فاتخذ مظاهر الفروسية ، ووضع قباء الغزاة . . كما حاولت مارى مانشينى أن تقوم إلى جانبه بدور الملهمة . . ولـكننا نريد أن نقول إن هـذا التحول ، أو بالأحرى هذا التثبيت الجلى القوى الصادق لأخلاق الملك ، قد اتفق وعهد المركيزة دى مونتسپان ، وتصادف ودولتها على صاحب الدولة ،

وامتلاكها مليك البلاد والعباد ! . . من ذلك العهد ، على أى حال ، بدأت الحروب العظمى والنفقات الباهظة ، وسياسة الفخامة . . ونبذت تقاليد التقتير الفرنسية ، وحلت محلها تقاليد من البذخ والسرف ، لا عهد بها من قبل لفرنسا والفرنسيين . . .

يقيناً أن قصور ڤرساى كانت ستبنى وتشاد ، رفيعة العماد ، ولو لم تكن هناك مونتسپان . . لكن لعلها ما كانت لولاها لتكون مسرحاً لكل تلك الأفراح والأعياد . ولعلها ما كانت لتتسع وتجمل وترتفع ، لولا رغبة أتنائيس الجميلة .

ولعل قصر سان چرمان العتيق ما كان ليتجدد لولا حرص الملك على أن يرضى صاحبته ، ويدهشها . فأنشأ لها ، أمام نوافذ مخدعها ، حدائق معلقة بين الأرض والسماء ! . . ولا ينسى الملك ، بين جيوشه وحروبه عام ١٦٧٣ ، والنار تتلظى بينه وبين أعدائه ، أن يعتب على وزيره كولبير ، ويوصيه : « إنك لم تبين لى ، فى جميع رسائلك التى كتبتها إلىّ ، ما تم من الأعمال فى قصر سان چرمان ، خاصاً بشرفات مدام دى مونتسپان . فلابد من إتمام ما بدأ منها ، وتزيينها بأقفاص الطير ، لتوضع بها العصافير . . ولهذا ليس عليكم إلا طلاء القبة والجوانب ، وتركيب سلك ذى حلقات صغيرة ، يقفل من ناحية الحوش ، مع حوض واطىء ، يكون عين ماء تشرب منها العصافير . . . أما الجانب الآخر فعليكم طلاؤه ، والاكتفاء فيه بفسقية ، لأن مدام دى مونتسپان ستتخذ منه حديقة صغيرة . . . »

أرأيت ملكاً عظيما ، فى وسط حرب وكرب ، يفكر فى أدق

التفاصيل ، ويذكر سلكاً له حلقات ، وأقفاص عصافير ، وينابيع ماء ، وحدائق غناء ؟ ! . .

أليس هو الحب ، فى أشد سعيره ، يستأثر بقلب الملك ، ويجعله لا يكاد يرى أو يذكر إلا عينى الحبيبة . يقضى على وزيره بأن يترك مهام الملك ليعنى بمحيط المحظية السعيدة ؟ . . ويحول قصراً عتيقاً مهجوراً إلى جنة فيحاء ؟ . . فترى فى كل مكان : الزهور ، والياسمين ، والأبصال المنوعة الألوان ، وشجيرات البرتقال فى أصصها ، والعصافير فى أقفاصها ، وأحواض الماء تنثر ماءها تحت نوافذ الغانية ، التى زخرفت مخادعها ، وجددت حجراتها ، وتلألأت ثرياتها الثمينة ، وشمعداناتها ذات الشعب ، كأنها الأفاعى النورانية . وبين هذا كله تصدح الكمان بأنغامها الشجية ، كل مساء . . .

وفى ڤرساى : بنى التريانون ، وقصر كلانى ، من أجلها . . وأنشئت البساتين الخاصة بها ، كأن عصا سحرية قد مست الأرض فأنبتتها نباتاً حسناً . لكيما يتضوع حولها شذى أزهار البرتقال والقرنفل والياسمين . . وكان ذلك كله بدعاً « طريفاً » على باريس ! . .

أليس الحب خالقاً مبدعاً ؟ . . فكيف به إذا كان حب ملك ؟ . .

لم يدخر الملك جنوناً ، ليجعل المركيزة تعيش فى قصر من قصور ألف ليلة ، ثم ليجعلها تظهر كمعبودة ، ثم ليجعلها تشبع كل نزواتها وبدواتها فى اللعب وفى الترف . لم يكتف بإحضار أندر العطور ، بل أندر الجواهر . حمّلها الماس بالملايين ، لتدوس كل سيدات البلاط بمظاهر الغنى الفاحش من الحلى والحلل . وكانت فى تذوقها لزينتها لا تُبارى .

تبدو فى سهرات القصر كأن جنيات البر حكن ثيابها . . وكأن جنيات البحر نضدن لآلئها ! . . لم يكن ذوقها ليضارع أو يجارى . لم يكن من هذا العالم . . كان ذوقاً علوياً ، عجيباً ، مترفاً ، مسرفاً ، لا تكاد أموال ملوك الأرض جميعاً لتقضى من العزة حاجته ، ولا من الوجاهة لبانته ! . .

وكان لويس لا يدخر فى إرضائها جهداً ، ولا مالا . . كتب ، وهو فى معمعان الحرب ، إلى وزيره كولبير : « إن مدام دى مونتسپان لا تريد مطلقاً أن أعطيها حجارة كريمة . لكنى أخشى أن تعوزها ، فأرغب صنع صندوق صغير أنيق ، ليوضع فيه ما سأبينه لك بعد ، لكى أجد فيه ما أقدمه لها عند رغبتها . قد يبدو هذا شيئاً غير عادى ، ولكنها لا تريد سماع شىء عن الهدايا . . هذا الصندوق ينبغى أن يحتوى على قلادة من اللؤلؤ ، أريدها جميلة . . وزوجين من الأقراط ، أحدهما من الماس ، أريده نقياً . والآخر من كل الأحجار . ثم علبة صغيرة ، ومشابك ماسية . . وعلبة صغيرة أخرى ، ومشابك من كل الأحجار . . ولابد من حجارة من كل الألوان ، ليمكن التبديل والتغيير . . وقرط للأذنين ، من اللؤلؤ اليتيم . . وثمانية وأربعين زراً ، يمكن تغيير الحجارة التى فى وسطها . . . أقول لك ذلك مبادراً ، لتعمل على إعدادها فى فسحة من الوقت ، وليكون كل ما فيها جميلا ، نظيفاً فى نوعه وفى صنعه . . ويكون هذا الصندوق معداً دائماً لما يعن لى ، وإذا جاء كما أشتهى ، كانت لى فيه مآرب أخرى . . . »

هذه الرسالة السرية تلقى ضوءاً ساطعاً على بعض ما أوتى هذا الملك من ذوق ومزاج . إذن ، ها هو ذا رئيس الجيش الأعلى ، وزعيم الدولة ،

يجد فراغاً يتحمس فيه ، بقدر تحمس صاحبته ، ليصف عقداً من اللؤلؤ ، أو قرطاً من الماس ! . . ويتشدد فى : أن يكون ذلك كله جميلا ! . . وأن يكون نظيفاً ! . .

هذا ذوق هاوٍ من هواة الفنون ، مفطور ، منذ مولده ، على محبة الأشياء الجميلة .. ومع ذلك ما من شك فى أن هذه الغرائز المتناهية فى الرقة ، المتناهية فى الخيلاء ، إنما أثارتها فيه عاطفة الحب ، والرغبة فى إرضاء امرأة ظامئة إلى الغنى واللذة والسيادة . فهى لم تكن ، كما ذكر الملك لوزيره بسذاجة ، زاهدة فى الانتفاع ، صادفة عن الهدايا . . لم يكن ذلك منها إلا تظاهراً ومداراة . . فقد كان مذهبها ، كما أفلت منها البوح به يوماً : « فى البلاط ينبغى الأخذ دائماً . . » . . كانت على ثقة من أن ذلك العهد عهدها ، ولا يلبث أن يجىء عهد سواها : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

ولم تكن المحظية لتتردد فى استغلال مكانتها . فضاربت بنفوذها ، وتاجرت بسلطانها ، تأخذ العزب والأطيان ، لتفرج عن مغضوب عليه من الملك ، أو تعفو عن واقع فى محظور ، أو لم تنزل لها الوارثة العظيمة « لاجراند مدموازيل » عن أعظم قسط فى ثروتها ، التى تعد من أكبر الثروات فى المملكة ، لتحصل ، تلك العانس ، على العفو عن عزيزها « لوزون » السجين ؟ . .

ذلك أن مونتسپان كانت هلوك مال ، تلتهم الذهب التهاماً . وكانت فى حاجة مستمرة ، لا لتقوم بنفقات بيتها ، وتكاليف حاشيتها ، فحسب ، بل ومقامرتها أيضاً . فهى تلعب كالمسعورة ، أو على حد تعبيرهم يومئذ :

« لعب جهنم » .. امرأة مقامرة إلى حد الرذيلة ، أو قل إلى حد الجريمة ، خسرت مرة مليوناً فى ليلة واحدة (نحو ٤٠,٠٠٠ ج !) . . وكان الملك مضطراً إلى سداد ديونها ، وأحياناً يفعل ذلك ساخطاً متبرماً . فقد كانت مونتسپان تكلفه ثمناً باهظاً إلى حد مروع . كانت كل زينة من زيناتها تعدل ثروة طائلة . ولقد اشتهر وصف المركيزة دى سڤيينيه لثوب من أثوابها التى ترتديها فى البلاط : « ثوب من ذهب ، على ذهب ، مطرز بالذهب . . تثنت من فوقه أسلاك من ذهب باهت ، معقودة بأسياخ من ذهب بندقى حر ، مما جعل الثوب كأنه هبة إلهية ، لا تحفة بشرية . . أجل إنه كان فوق ماتتصوره مخيلة البشر . . إنهن أجمل عرائس الجن ، اللواتى نسجن فى السر هذه الحلة ، لتلبسها أجمل عرائس الإنس ! . »

أما فى هذه المرة ، فإن المركيز دى لانجليه هو الذى فاجأ الجميلة أتنائيس بتقديم هذا الثوب « الإلهى » . . ولكن الملك ، عادة ، هو الذى يسوى الحساب . وهكذا ساقت هذه المحظية ذلك الملك ، الذى كان بمبدأه ضنيناً ، وكان بذوقه يميل إلى « الفخفخة » ! . .

تليذ مازاران البخيل هذا ، قد انقلب ، على يديها ، أميراً سمحاً مبذراً .

وكذلك أصابه تحول آخر بسبب الحب : هذا الخجول الذى كان دائماً يخشى الفضيحة ، انتهى ، إن لم يكن بتحدى الرأى العام ، فعلى الأقل بأن يعرض زناه بجرأة على مرأى ومسمع من البلاط كله ، منتهكاً بذلك كل حرمة ، إذ جعل لهذا الوزر صفة الشىء المقبول المباح .

لقد كانت المركيزة دى مونتسپان هى الملكة الحقيقية ، وكان الجميع ، حتى

أطفالها أنفسهم ، يدعونها السيدة الجميلة « *La Belle Madame* » . وكأنها خلقت لهذا الدور منذ مولدها .

ويؤكد لنا « سان سيمون » فى مذكراته : « ... إنها لم تستطع التخلص قط من « مظهر » الملكة هذا ، وإنها اغتصبته لنفسها ، حتى لقد تبعها هذا المظهر بعد اعتزالها حياة القصر واعتكافها . وألف الناس ذلك منها ، وانصاعوا له . وكانت تجلس فى مخدعها على عرشه منتصبة بحافة سريرها ، وليس فى الغرفة مقعد سواه .. حتى ولا لأولادها من الملك .. حتى ولا للدوقة دورليان نفسها . . ومن هذا يمكننا الحكم على طريقة استقبالها الناس جميعاً . وكانت فرنسا كلها تقصدها ... ولست أدرى بأية بدعة تحول ذلك ، مع الزمن ، إلى واجب ... وكانت تخاطب كل زائر كما لو كانت ملكة متوجة ، مستوية على عرشها ، تشرّف رعاياها بتوجيه الخطاب إليهم .. كل من يدخل عندها يحس التهيب والخشوع للمثول بين يديها .. أما أن تقوم هى بزيارة أحد ، فأمر لم تفعله قط لكائن من كان ، حتى ولا لشقيق الملك ، ولا لعقيلته ، ولا للجراند مدموازيل ، ولا لقصر كونديه ... »

فإذا كان ذلك حال المركيزة دى مونتسپان ، وقد شاخت ، وهجرها عشيقها ، فما بالك بها حينما كانت فى أوج مجدها ، مستولية على قلب ، مستوية على عرشه ؟! كانت إذ ذاك تستبيح لنفسها تصرفات لا تروق الملك ، ويشمئز منها الشرفاء من أهل البلاط . فالمحظية لا تقنع بإعلان ثرائها وسلطانها المطلق ، فحسب ، بل تعرض على العيون ، بطرق فاجرة ، لا تعرف حرجاً : عبثها ، ولعبها — كما فى الشطرنج — بالشاه الذى « مات » فيها ! ..

وها هى ذى المركيزة دى سڤينييه تروى لنا ، فى رسالة إلى كريمتها ، عودة ظافرة لأتنائيس الجميلة إلى البلاط ، بعد إحدى غضبات الملك منها ، فتصورها لنا هكذا : « . . كوانتو (رمز مصطلح عليه لمونسپان فى مراسلاتها) كانت جالسة ذلك اليوم ، على مائدة اللعب ، وقد أسندت رأسها بلا كلفة على كتف صاحبها (الملك) . . وهم يزعمون أن هذه المظاهرة منها كأنما لتقول : « إننى خير مما كنت أبداً » . . . »

بكل يقين كانت هذه الحركات منها تجرح الملك ، وهو الحريص طول حياته على اللياقة والوقار . . لكنه كان يحتملها من خليلته ، لأنه لم يعد يستطيع الاستغناء عنها . . ولأنها بلغت منه ما تريد ، وتمكنت . . صارت سيدة سيدها . .

كانت هذه المرأة علة الملك ، وكانت تعلته . . منها الداء ، وفيها الدواء !

ذلك أنه كان متعلقاً بها بروابط شتى ، ربما كان أشدها : حكم العادة . فمن خصائص هذا الملك كما ذكرنا ، أنه رجل عادات ، حتى فى الحب . فى رجل شهوانى من مثل طبعه تتفق هذه الغرائز المنظمة تماماً وسهولة الغراميات العابرة . وكائناً ما كان تعلق الملك بهذه الخليلة الشبقة المخصبة ، فقد كانت بينهما منازعات مستمرة ، كفيلة حتما ، هذا اليوم أو ذاك ، بالقطيعة الحادة . فليست الاختلافات الشاعرية بينهما قليلة . وكان أدعى ما يدعو إلى سوء التفاهم والفرقة طبع هذه المرأة ، الذى يؤلب الحدة مع الاستبداد . وهى كذلك مفطورة على الشجار ، والنزاع ، تتضارب فى جوانحها الأهواء والنزوات ، لاتفتأ تخاصم الملك ، وتشتجر معه ، بسبب ،

وبلا سبب ، تفعل ذلك من طبقة عالية . فهى تدرك تماماً كيف تعامل خلقه الطاغى ، وقد رتبت سلوكها طبقاً لما يتناسب وذلك الخلق . لابد إذن لمن لا يريد أن يكون مستعبداً منه : أن يسوده ، وأن يتحرش به ، ولو بضرب السياط ، كما لو كان حصاناً جموحاً لا يسلس له ، إلا بالعنف ، قياد .

ومن ثم جاءت تلك الغضبات المضرية ، والسخطات المتواصلة ، وتلك المشاهد الفاضحة ، التى تصطنعها « السيدة الجميلة » لعشيقها . فهى ، إذا شئنا أن نقول ، تهدده ، وترعبه ، وترعده . فقد رأت بعينها يوماً « رأس الحمل الطائرة » ، فانقلبت ذئبة . رأت لاڤاليير قد ضاعت ، وباءت بالخسران والهجران ، بسبب تواضعها وتنعمها وتذللها . فرأت ، لكى تظل السلطانة ، أن تعمل عكسها تماماً ، تحكم بالعنف لا اللطف ، وبالكبرياء لا الرجاء . .

على أنها ما لبثت أن أرهقت الملك بجشعها ، وبطلباتها التى لا تنقطع من وظائف ونقود . حقاً ، إنها لم يكن لها أى ضرب من النفوذ السياسى . فإن لويس الرابع عشر كان قد اصطلح على ألا تخدم خليلاته إلا ملذاته . . . أقسم لنفسه ألا تكون لهن عليه أية سلطة تنازع فى الحكم سلطته . ويمكن ، إلى حد بعيد ، القول بأنه استمسك بعهده لنفسه . غير أن هذا لم يحل مطلقاً ، وهو مصدر النعم كلها ، دون أن يجرى على المختارة منه ، الأثيرة عنده ، هى وأهلها : أرزاقاً ، ويغدق عليهم من الخيرات إغداقاً . . انتفعت المركيزة دى مونتسپان ، ونفعت . . وأسرفت ، كما هى عادة النساء ، فى الاستنفاع : بالطيبات ، والتوصيات . . . وكانت بارة بذوى قرباها ، فعملت بهمة على أن يبلغ أخوها الأميرال الدوق دى ڤيڤون ذروة المجد ، رغم

ما عرف عنه من سوء السير ، الذى يحول عادة دون التقدم . وحصلت له ، بعد لأى ، على عصا المارشالية .

فلنستمع إلى الأب دى شوازى يروى بخبث حكاية ذلك الدس الجهيد ، قال : « كان الملك قد أعد ، مع وزيره لوڤوا ، كشفاً بأسماء أولئك الذين سيشرفهم بعصا مارشالية فرنسا . ثم قصد عقب ذلك إلى المركيزة دى مونتسپان التى فتشت فى جيوبه ، وأخرجت الكشف ، فلما لم تجد فيه اسم أخيها ، تميزت من الغيظ ، وتفجرت منها احدى غضباتها المشهورة عنها ، الخليقة بها . فلم يقدر الملك ، ولم يجرؤ ، على مقاومتها ، أو مواجهتها . . فتمتم قائلا : إن المسيو لوڤوا إذن قد نسى ، حتما ، وضع اسم الشقيق العزيز . . فصاحت به آمرة ناهرة : « إذن فابعث فى طلبه حالا ! . . » ، ولامته ما شاءت أن تفعل ، وكما ينبغى أن يكون الملام . . وبعثوا فى طلب الوزير ، وقال له الملك بكل رقة : إنه ، بلا شك ، قد نسى « ڤيڤون » . . فبدأ الوزير يتلجلج معترفاً ، معتذراً عن ذنب لم يرتكبه ! . . ووضع اسم الشقيق الغالى فى رأس القائمة ! . . وعندئذ ، وعندئذ فقط ، سرى عن صاحبتنا ، واكتفت بأن عتبت على لوڤوا إهماله مسألة تمسها إلى هذا الحد من قريب . . . »

ما أصعب أن يتصور المرء ملكا عظيما : يكون إلى هذا الحد ولداً صغيراً إزاء « أتنائيس الجميلة » . . أيمثل هكذا ، تحت سحر العيون ، ملك عرفه التاريخ : حازماً ، قاسياً ، طاغياً ؟ .. ملك غيور على سيادته ، وعلى كرامة سلطته ؟.. أكانت جيوب الملك هكذا مباحة المحظية ، تفتش فيها ، ثم تنفضه بنظرتها ، وتروعه بغضبتها ، فيتمتم أمامها ، كتلميذ مذنب يخشى العقاب !

أما أن تلك الترقية انتزعت من الملك انتزاعاً ، فأمر لا مرية فيه .. وإذا نظرنا بالحاجب الثانى ، كما يقول العرب ، عرفنا ما هى تكاليف الغرام !

ليت هنداً أنجزتنا ما تعد وشفت أنفسنا مما تجد
واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد !

وكما تكونون يولى عليكم ! ..

وكان شر ما يلقاه هذا الصب الموله ، على تسامحه مع الغضبى ، وكرمه مع الشرهة ، وتلبيته كل نزواتها ، ونزوله عند كل بدواتها : شعوره بأنها لم تكن تحبه إطلاقاً . . . وملاحظة أنها ، فى خلوتهما ، تكون منصرفة الذهن إلى غير ما هما فيه ، تاركة جسدها ، على رغمها ، فى عش الهوى ، طائرة بروحها ، محلقة بنفسها ، فى عوالم أخرى ! ..

إنها كانت فى اللعب جالسة إلى المائدة الخضراء ، تقامر ، وتكسب ، وتخسر ، بلا حساب . . إنها كانت تسير محملة بأجمل الجواهر ، وتتخطر أمام بلاط هو مجمع الشابات والشبان ، وترقص ، حتى تلهث ، وتشترك فى دوى المحادثات ، ورنين الضحكات ، وشجى النغمات ، وتنسجم فى ضوء الثريا ، ولألاء الماس ، وهى تعرض من نضرة حسنها ، وآية زينتها ، وروعة ماسها ، ما تتصاغر إزاءه النساء ، وما يتهوّس أمامه الرجال ! ..

أما الملك ، فهو كلما علت به السن ازداد نزوعاً إلى الهدوء ، وميلا إلى الخلوة . . فما كان لهذه المظاهر الطائشة إلا أن تفتّ فى عضده ، وتصطدم بوقاره وجده . وشعر أن المركيزة لا تبقى إلى جانبه إلا لقضاء مصلحة لها أو لبانة . وربما كانت تساوره كذلك الشكوك فى وفائها . فلم تعزّ الرسائل

الغُفل التى جعلت تصل إليه ، وتقطر هذا السم فى فؤاده . . أو لم يجر الوسواس الخناس بأنها ، قبل علاقتها بالملك ، كانت خليلة ذلك « القزم الوقح » لوزون المشهور ، الذى عرف عنه أنه « ديك » نساء البلاط جميعاً ؟ ! وقد ظلت هذه الحكاية سراً غامضاً . ويحتمل ، بل أكثر مما يحتمل ، أن شيئاً ما ، كان بين المركيزة دى مونتسپان ولوزون ، حتى إن هذا القزم كان يطوح بها على هواه ، ويجعلها تغنى على ليلاه ! . .

* * *

وكان للملك جواسيسه فى كل مكان يحملون إليه يومياً أسرار المراسلات . . فوقف بالتأكيد على كل هذا اللغط السيء . وما كان ذلك بالطبع ليحسن فى شيء صلاته بخليلته الهوجاء . . زد على هذا أن هناك ، فى البلاط نفسه ، جماعة تقية من الناس ، تعمل ، بلا هوادة ، لوضع حد لهذه العلاقة المحرمة الفاضحة .

ولقد نفخ فى نار هذه الفضيحة جميع أعداء الملك ، سواء فى فرنسا أو خارجها . وساهم ، فى هذا ، شيئاً ما ، الزوج الساخط الممرور ، المركيز دى مونتسپان نفسه ، بما أثاره من ضجة حول حياته الزوجية التعسة . . والظاهر أن هذا السيد كان يرضى عن طيبة خاطر أن يقوم بدور الزوج المساير ، لو أنهم عرفوا فى الوقت المناسب دفع ثمن مسايرته . . أما وقد خاب منه الأمل ، فقد راح يرفع عقيرته بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، لينتقم من قلة كرم الملك .

وكان أهل الوقار والمتزمتون لا ينفكون عن التنديد بما فى هذه الواقعة

من « زنا مزدوج » ، ووزر ثقيل . وأجمع الهجنوت والچانسيون وجميع أحزاب المعارضة على ملامة الملك على مسلكه وسوء سيرته . ولم يعد الكثالكة بقادرين بعد على التسامح فى هذا الإثم الكبير ، الذى يلقى عندهم ظله الأسود على الدين كله . . وتألفت عصبة تقية لتحمل الملك على القطيعة ، عصبة انضم إليها « الأب لاشيز » الذى يتلقى اعترافات الملك ، و « بوسويه » الخطيب المؤثر ، ومدام دى مانتنون ، والمارشال دى بلڤون ، وغيرهم وغيرهم . .

ولم يكن الأب بوردالو ، واعظ البلاط الدينى ، بالذى تنقصه الشجاعة ، فلم يدار الملك ، بل وجه إليه الإنذارات القاسية . ولا مشاحة فى أن ثلاثاً من عظاته ، خاصة ، عن الدنس ، وعن عدم التوبة ، وعن عذاب السعير ، قد تركت فى الملك أثراً عميقاً . .

وفى تلك الأثناء كانت مدام دى مانتنون ، التى أخذت على عاتقها مهمة هداية الملك ، ورده إلى الصراط المستقيم ، قد بدأت عملها الورع ، فى أناة وحذر .

ولعل ضمير الملك ، فى هذه الآونة ، طفق يتحرك ويضطرب : « فقد كان دائماً أميراً ورعاً ، يخاف عذاب يوم آخر . وقد حدث ـ كما روى المركيز دى لافار فى مذكراته ـ أن رأى أحد ضباطه يُحتضَر فى ڤرساى ، ويتناول سر القربان المقدس ، فأثر فيه هذا المشهد ، إلى حد أنه أدلى به عند عودته إلى خليلته . . بحيث إنها هى أيضاً تحركت هواجسها من تأنيب الضمير . . وقالت باستعدادها للتوبة والإنابة ، واعتزما الافتراق . . »

أتكون هذه نقطة التحول فى قلب هذا الملك ، الذى كان يخاف الله ؟

على أن الأمور لم تجر على نحو من السهولة والبساطة إلى الحد الذى يصوره لنا ذلك المركيز . والحقيقة أن بوسويه ـ ومن ورائه صحبه ـ كان قد وضع خطة واسعة لينتزع من الملك عهداً بألا يعود إلى لقاء « السيدة الجميلة » . . وكتب إليه فى هذا الصدد رسائل مؤثرة بليغة . وأخيراً حال قسيس ڤرساى بين الملك الزانى وبين تناول القربان . . . وانتهى الملك إلى الخضوع ، بعد ما غص قلبه بالحسرة والندامة . . . وفى ١٣ أبريل ١٦٧٥ ، أدى صلاة الفصح فى كنيسة ڤرساى . وانتصر بوسويه ! . فاز بدخول لاڤاليير إلى دير الكرمليين ، وبطرد المركيزة دى مونتسپان من القصر .

إذن آن أن تختفى معالم الخنا ، وتنمحى آثار رجس الملك . .

فوز كان قصير الأمد . فبعد ما قضى جلالته بضعة أشهر فى الجيش ، عاد إلى عادته القديمة . . بل إنه قبلما يدخل قصر ڤرساى ، كانت أتنائيس الجميلة سبقته إليه ! . . فأهرع بوسويه إليه يبذل محاولة جديدة . لكن كان قد سبق السيف العذل . هزمت عاطفة الغرام الجامحة ما فى فؤاد الملك من تورع وتقوى وإيمان . فلم يكد ينطق بوسويه أمامه بكلمة ، حتى انتهره صائحاً فيه :

ـ « لاتقل لى شيئاً يا سيدى ! . . لاتقل لى شيئاً ! . . فقد أصدرت أوامرى ، وأوامرى واجبة التنفيذ ! . . »

٦

من المحتمل كثيراً أن حكم « السيدة الجميلة » كان يمتد ويطول ماطاب لها ، لولا « مأساة السموم » ، التى كانت لها يد فيها ، والتى لطخت بالعار بلاط فرنسا ، وملأت أوربا كلها بالسخرية والاستنكار ، حتى إيطاليا ، المشهورة بتفننها فى السموم ، عيرت فرنسا بمأساتها ، وعدت نفسها إلى جانب تلك الجرائم ساذجة بريئة ! . .

فما هى هذه القضية ؟ . .

لنرجع إذن القهقرى بضع سنوات ، لنرى فضيحة يدلهم لها قصر عاهل فرنسا ، وتسود منها صفحات التاريخ . . فضيحة لم يسلم منها رجل من علية القوم ، أو سيدة من الشريفات والنبيلات والأرستقراطيات ، اللواتى يفخرن بأنهن « الطبقة الراقية » ، ويصعرن خدودهن للناس . . . فضيحة دلت على أن المرأة التى كانت خليلة الملك لاثنى عشر عاماً ، وولدت له لا أقل من سبعة أطفال ، إنما هى قاتلة ، ملوثة اليدين بدماء ضحاياها ، وثيقة الحلف مع الشيطان نفسه . .

حدث حوالى عام ١٦٧٣ أن قسس نوتردام ، الذين يتلقون اعتراف النادمين ، أبلغوا بوليس باريس بوفرة عدد النساء اللواتى يعترفن بأنهن دسسن السم لبعض الناس . . فلم تعر الشرطة ذلك اهتماماً ، لكثرة ما يقال

ويروى فى مثل هذه الشؤون ، بعد قضية المركيزة دى برنفلييه ، التى اشتهرت بأنها « ملكة السموم » ، مما يجىء غالباً بقصد التظاهر والمحاكاة ، ولا أساس له . . ولكن ، بعد أربع سنوات ، فى سبتمبر ١٦٧٧ ، بعد أربعة عشر شهراً من إعدام المركيزة دى برنفلييه ، وُجدت مذكرة فى معترف إحدى الكنائس بشارع سانت أنطوان ، تدل على مؤامرة لتسميم الملك وولى العهد . ثم ظهر أنه إنذار لا محل له ، فلم يسمع به بعد ، لولا أن تحرك البوليس آخر الأمر .

فقد كان فى شرطة ذلك الزمان ملازم يدعى « جبرابيل دى لاراينى » ، موفور الحظ من المقدرة والفطنة ، ظل يتتبع الحياة الباريسية ، ليكشف عما إذا كان ثمة أساس من الصحة للإشاعات الكثيرة . وأدت مباحثه فى نوفمبر إلى القبض على من يدعى « لويس دى ڤانانس » ، وهو رجل له معاملات مع الأكثرية البارزة من أهل البلاط ، ومنهم المركيزة دى مونتسپان . وكذلك وجدت أوراق معه ومع خليلته « ڤينيت » ، ألقت ضياء على عصبة كاملة من الكيمائيين ، والسحرة ، وطهاة السموم .

وفى نهاية العام التالى ، ظهرت قرائن جديدة ، إلى جانب الوقائع التى طفق لاراينى يميط عنها اللثام شيئاً فشيئاً . فقد جاء محام صغير إلى البوليس بحكاية شنيعة . قال إنه كان فى حفلة عند امرأة تدعى مدام ڤيجورو ، وقد لعبت الخمر بالرؤوس . وفى آخر السهرة فاهت إحدى المدعوات ، وهى منجّمة معروفة باسم « مارى بوس » ، بهذه العبارة : « تكفينى ثلاث عمليات تسميم أخرى ، وأستغنى » . . فأسرعت مدام ڤيجورو فهزت

صديقتها السكرى ، تنبهها إلى طيشها ، لكن بعد أن فات الأوان .. وأراد البوليس أن يتثبت من صحة رواية المحامى ، فأرسل امرأة إلى مارى بوس ترجو بعض السم « لزوج لم تعد تطيق البقاء معه » .. فوقعت مارى فى الفخ المنصوب لها ، وربما كان ذلك بسبب رغبتها الملحة فى الاعتزال السريع ، وباعت للزبونة سائلا ، قالت لها عنه إنه « يؤدى الواجب لساعته » .. فسلمت الزجاجة للبوليس ، فوجدها تحوى سماً زعافاً .

وعندئذ قبض فى الحال على مارى بوس ومدام ڤيجورو .. وبدأ سيل من الاعترافات ، أدى إلى الرأس المحرك لهذه العصبة ، وهى « كاترين مونفوازان » : امرأة ساحرة ، غريبة ، شنيعة ، دميمة ، ذات قوة خارقة للعادة فى الشؤون الروحية والتنبؤ بالمستقبل ، وإحاطة بعلم النفس ، مكنتها من الاتصال بأرقى الطبقات ، تعد لهم : التعاويذ ، والسم ، والترياق ، و« تشبشب » ، وترد الشباب إلى من فقدت نضارته .. وكانت تجارتها بادئاً بريئة ، جمعت ضرباً من معاهد التجميل والصبا .. ثم تدرجت طمعاً فى المال ، إذ وجدت أغلب زبائنها يرغبون فى الخلاص من بعض الناس .. ولما كانت على معرفة غير قليلة بالطب والكيمياء ، فقد راحت تركب السموم .. ثم انقطعت لهذه الصناعة ، يحميها عدم تقدم الطب الباطنى إلى حد تكتشف معه آثار السموم فى الأبدان .. وتضخم غناها ، واشتهر اسمها فى كافة الأرجاء . وبرغم دمامة شكلها ، وشناعة تجارتها ، فقد كان لها عشاق كثيرون ، أحدهم يدعى « لساج » ، صار ساعدها اليمنى . وآخر هو الشرير « الأب جيبور » ساعد على انتشار آثارها ، تحت ستار من مسوحه الدينية ،

إذ لا يشك فيه أحد . وكذلك كان من بين عشاقها الكونت دى كوسرانس ، والكونت دى لاباتى ، والمهندس فيشيه ، وأندريه جيوم الذى كان يتولى إعدام المجرمين ! . .

ولما قبض على هذه المرأة ، وذاعت الفضائح المنكرة حولها ، أمر الملك بتأليف لجنة خاصة للتحقيق ، من أعضائها ذلك الملازم اليقظ « لاراينى » . وعرفت هذه المحكمة باسم « الغرفة الحامية » أى « المحكمة المستعجلة » ، لأن القضايا فى الزمن الغابر كانت تنظر فى غرفة رهيبة ، مجللة الجدران كلها بالسواد ، وتضاء بالشعل والشموع . . وبلغ عدد المتهمين ٤٤٢ شخصاً ، تعلق مصيرهم بخيط من العنكبوت . . لكن شهوات الرجال تغير مجرى التاريخ . إن ضعف الرجال للنساء هو علة العلل : علة تقضى على مستقبلهم السياسى أحيانا ، وتقضى على مصالح وطنهم أحيانا ، وتدنس كرامة الرجولة ، وتزعزع إيمان الشباب بالمثل العليا للرجال العظام .

ظهر للملازم لاراينى ما مزق قلبه ، رأى أن أغلب أعضاء لجنة التحقيق فى « الغرفة الحامية » طفقوا يتعشون ، ويرقصون ، ويغازلون السيدات الواقفات أمامهم موقف الاتهام ، المسئولات عن جرائم قتل أو شروع فى قتل . وانقلب هؤلاء القضاة رعاة : يبسطون أجنحة الحماية والرحمة على هؤلاء الفاتنات ، اللواتى ينظرن إليهم بنعومة ودلال ، نظرات مكحولة بالإغراء والاشتهاء ، فلم يستطيعوا رد ندائهن الصامت الصارخ . . ولم تعد تحدوهم رغبة فى إرسالهن إلى السجن ، أو إلى المنفى ، أو إلى الإعدام ! . . وكانت مطارحات الهوى ، وجولات الجوى ، سبباً فى ظفر الجمال بالحق ،

فبدلوا أحكام الإعدام بالإبعاد المؤقت عن باريس ! . .

أما الرجال أوالنساء الدميمات ، فقد أمضوا فيهم قتلا وتشريداً ، أعدموا ستة وثلاثين ، ونفوا ثلاثة وعشرين ، وألقوا فى غياهب السجن بالباقين !

فالمحاباة ، والاستثناء ، قد سادا « الغرفة الحامية » ، منذ مئتين وستين عاماً ! . . . فتأمل ! . .

وقد خف الملك نفسه ، لإنقاذ بعض اللواتى يتصلن به ، من قريب أو من بعيد ، ومنهن أوليمپ (الكونتس دى سواسون) وشقيقتها ، والدوقة دى بويون ، والبرنسس دى تينى إحدى وصيفات الملكة ، ومارشال لكسمبورج ، والمركيزة دلوى ، والكونتس دى رور ، والكونتس دى پولينياك . . وقد هز الملك رأسه أسفاً على ما كان من هذه النخبة الأرستقراطية البارزة ، المحيطة بالقصر . . وانتظر تفاصيل التحقيق ، ولكنه بادر إلى حماية أوليمپ دى سواسون ، التى كانت له بها علاقة فيما مضى من السنين ، ثم هى المشرفة على جناح الملكة وخزاناتها فى البلاط . . وخيّرها بين المنفى وسجن الباستيل ، فاختارت الرحيل .

ولما عمت الفضائح ، وزادت الإشاعات ، وأصبح بلاط فرنسا ، بنسائه ورجاله ، أحدوثة قصور أوربا ومضغة الأفواه ، أصدر الملك ، فى أول أكتوبر ١٦٨٠ ، أمراً ملكياً بوقف جلسات « الغرفة الحامية » !

وكانت فى مقدمة السيدات الآثمات ، تلك التى عالجت أشنع الخطط ، وبيتت أبشع الجرائم : امرأة ولا كل النساء : لأنها أقربهن إلى قلبه ، محظيته الرسمية ، وأم أولاده الرسميين : أتنائيس الجميلة : المركيزة دى مونتسپان !

ونحن ، وإن لم تكن لدينا الملفات الخاصة بهذه القضية السوداء الشنيعة ، إذ أن الملك أحرق منها بنفسه ما أراد ، يكفينا ما بقى من الوثائق لإثبات اشتراك المحظية العزيزة فى استخدام السموم ، للخلاص ممن لا يروق لها .

وما من شك فى أن الملك ، رغم سورة غضبه الأولى ، وشناعة التهمة اللاصقة بها ، تمالك ، واصطنع الصبر ، بدلا من طردها من البلاط لكيلا يراها مرة أخرى .

إن اسمها كان قد تردد كثيراً خلال التحقيق ، ومنذ بدأت قضية السموم الكبرى ، كانت أفظع الشكوك تساوره منها . وقامت بينهما منازعات غاية فى الحدة والعنف . والآن ، إذ ثبت قطعاً انغماسها فى هذه الحمأة حتى أذنيها ، فقد طفح الكيل . لكن الملك كان رجلا شديد الحصافة والحذر ، أفطن من أن يقوم بحركة يكون لها دويها ، يفرض بها عقاباً يكون أشد من الضرر المستفحل نفسه ، وينفخ بها فى نيران فضيحة تمس كل نبلاء فرنسا العظام ، وتمس جوانب العرش ذاته . . . فأمر بإغلاق « الغرفة الحامية » ، ولم يكتف بأن تقال من العقاب خليلته الآثمة ، وأم أولاده ، بل قرر أن تترك وشأنها ، لتقيم فى البلاط أيضاً . فمن كرامة الملك ألا تظهر صاحبة الملك مجرمة أثيمة . . وكل ما عليها هو أن تعتزل جناحها الخاص ، لتكون بمنأى عنه ، فلا يريد بعد جوار امرأة سمّامة ! . .

بقيت إذن المركيزة دى مونتسپان فى البلاط ، وقضت عمراً طويلا آخر ، يبلغ عشر سنوات على الأقل ! . . كما بقيت لافاليير من قبل ! . . بيد أن الضربة التى أصابتها لم تصلح من شأنها كثيراً ولا قليلا . فقد ظلت ،

كما كانت دائماً ، فى تعطشها للملذات ، ونهمها للمال والرتب ، سواء لها أو لأهلها ، تداعب على الدوام ، فى صميمها ، الأمل العنيد بغزو الملك من جديد ، وتتعلل بأنه لا يلبث اليوم أو غداً أن يتهافت عليها ، كعادته السابقة ، بالروح والبدن جميعاً . .

وطال بها المطال ، وضاق المقام . . ورأت آخر الأمر أن عشيقها القديم اجتواها ، بل - كما قالوا - « احتقرها » ، واضطرها إلى مغادرة البلاط نهائياً . . اقتنعت بأنه ما باليد حيلة ، وأن لا أمل لها فى استرداد مكانتها السابقة .. فتابت وأنابت .. وهى توبة جاءت متأخرة ، ولكنها توبة صادقة على أى حال .

وقد صحب توبتها ما روع أصحابها مما تلاقيه من عذاب نفسانى ، وعقاب روحى . . أية جرائم إذن يمكن أن تكون ارتكبتها هذه المرأة ، حتى لا تجد توبة من الخشونة بحيث تمحو أوضار حياتها الماضية ، فتلبس مسوحاً من الشّعر يلى بدنها ، تحت ثيابها ، وتعذب لحمها بكى النار ، وتخاف مع هذه الكفارة كلها الظلمات ، فتجعلهم يشعلون الشموع طوال الليل فى غرفة نومها ؟ !

* * *

أما الملك فقد ردته هذه الصدمة العنيفة على الفور ، غداة مأساة السموم ، إلى حظيرة التوبة .

يؤكد لنا سان سيمون ، وغيره من المؤرخين ، أن مخافة الله جعلت لويس ينتزع نفسه من شيطان أتنائيس الجميلة ، ويتورع . . وهذا حق . . فإن

بشاعات خليلته وسوءاتها كشفت له فجأة عن كل ما يمكن أن تقع عليه العين من الشر والقذى .

فتراجع القهقرى رعباً واشمئزازاً . . . وربما ظل يتذكر ذلك اللقاء العارض فى دهاليز فرساى ، عندما كانوا يحملون القربان إلى أحد ضباطه المرضى فى النزع الأخير . . . أجل ! لقد تداركته رحمة ربه ، فردته على أعقابه ، لكيلا يكون من القوم الخاسرين ! . .

وانتهز البعض نقطة التحول هذه فى ضميره ، وكان يتربص بها ، من وقت طويل . . ولم يكن هذا البعض إلا مربية أطفاله — أولاد الزنا من المركيزة مونتسپان — وهى التى رفع الملك درجتها اعترافاً بجميلها ، فأصبحت : المركيزة دى مانتنون . . . وكانت تدفعها وتوجهها عصبة من التقاة ورجال الكنيسة ، حتى اقتنعت بأنها مسخّرة من عند الله لتؤدى إلى الملك رسالة : أن تساعده على سلام روحه ، وتنقذه من فاحشة الزنا التى ساءت سبيلا . . أو على حد تعبيرهم فى ذلك الزمان . « من تجارة النساء » !

وكان الملك فى الثانية والأربعين ، فى ذروة قوته وحيويته ، يُخشى عليه ، فى كل لحظة ، أن يرتد ويعود إلى عاداته القديمة من التهتك والاستهتار . على أنه بذل مجهوداً كبيراً ليكبح أهواءه ، ويكبت شهواته . ورفع من كرامة عيشه . ولم يشاهد قط ، مثلما شوهد فى تلك الأيام ، ربّ أسرة ، شديد التعلق بالملكة . أما الملكة فقد دهشت ، وفتنت ، بما أصاب قرينها من تغيّر ، وعزت الفضل فيه إلى تلك التقية الورعة الحاذقة « مانتنون » . فشكرتها ، لأنها ردت إليها قلب الملك . . .

ثم حدث ، بعد عام أو عامين ، أن ماتت الملكة . فشوهد ما لم يخطر ببال إنسان . . أصبحت المركيزة دى مانتنون — تلك التى كانت أرملة أديب خامل ، تدعى مدام سكارون — هى الزوجة (غير المتكافئة !) : عقيلة الرجل الذى كان يومئذ : عاهل فرنسا ، وفيصل أوربا ! . . .

هذا الحدث العجب ، الذى ذهل له العالم ، ربما كان هو أعجب جانب من حياة الملك العاطفية ، وأمعنه فى السر والخفاء ، وأعصاه على الذهن !

فلننظر فيما حاول المؤرخون أن يجدوا له من تفسير وتبرير . . .

الكتاب الثانى

٧

أما حظ المركيزة دى مونتسپان ، فقد سطع سطوعاً مفاجئاً ، باهراً ، لايقاوم . . وأما حظ مدام دى مانتنون ، فقد جاء بطيئاً ، متمهلا ، متثاقلا ، مضيقاً عليه فى الرزق ، مشدداً عليه فى الخناق ، متقطعاً بالعقبات الكؤود . . لذلك نرى هذه المرأة ، التى نشأت فى لفائف البؤس وطيات الخمول ، وعاشت فى غمرات العيش . . نراها ، إذ وصلت إلى ذروة العظمة والسؤدد ، حريصة على أن تتدثر بالحجب ، وتنطوى على نفسها فى الظلال ، وتقبع ، ولو فى الظاهر ، فى عقر التواضع والظلام . . .

ومن العبارات المشهورة عنها ، التى تذكر للدلالة على نفسيتها ، ما كتبته لصديقتها مدام دى ڤيلارسو ، فى شهر أغسطس ١٦٦٠ ، عند عودة الملك الظافرة إلى باريس ، هو وزوجته الشابة مارى تريز : « لا أظن فى الإمكان أجمل مما كان . . ولا شك فى أن الملكة نامت ، مساء أمس ،

سعيدة بالزوج الذى اختارته » . أرادوا أن يقرأوا بين سطور هذه الرسالة لوناً من البوح بالحب للملك ، من جانب مدام دى مانتنون ، قبل بنائها به بخمسة وعشرين عاماً ، وضرباً من الإشارة إلى قدرٍ كان يعد لها ، والرجم بغيب مصيرها .

فمنذ تلك الأيام البعيدة ، وصاحبتنا فرنسواز هذه ، أرملة الكاتب سكارون دى مانتنون ، تحلم بامتلاك فؤاد الملك . . جعلت هذا الغزو نصب عينيها ، ومضت فى سبيله قدماً ، بخطى ثابتة . والحق أنه يتعذر إدراك بداية هذا الطموح العجيب منها ، الذى هو أقرب إلى الخرافة ، أو على حد تعبير المركيزة دى سڤينييه : « لاشىء أشد غموضاً وخفاء من الجزء الأول من حياة هذه المرأة » . . وفى هذا قالت مانتنون ، وقد أصبحت ملكة فرنسا ، إنها تريد أن تبقى : « لغزاً للذريات القادمة » !.. والواقع أنها ، فى هذه الزيجة ، لغز معمى ، هى والملك سواء : هذه المرأة الحصيفة الحذرة ، التى تهرب من الضوء ، وتتجنب الظهور ، وتتملص من أن تكون قبلة الأنظار : أتراها كانت ترى جلياً ما يدور فى ذات خلدها وصميم نفسها ؟ . . وإلى أى حد اصطنعت هى مصيرها ، ورسمت قَدَرها ؟ . .

* * *

إنها بنت رجل « جعيدى » وامرأة وضيعة ، تيتمت منذ الصبا ، فعاشت أقرب ما يكون عيشها على الصدقة والإحسان العام . . آواها بادئ أقارب بعيدو القرابة ، منهم مدام دى ڤيليت . . ثم مدام دى نيان ، التى يمثلها لنا سان سيمون فى مذكراته : مخلوقة شحيحة ، تقبض بنواجذها

على مفاتيح أهرائها ، و « تكيل بنفسها الشعير لخيولها فى الإسطبل » . .

لم تكن الصبية فرنسواز عند قريبتها الذميمة هذه إلا خادمة بمعنى الكلمة . بل إن أعداءها كانوا ، فيما بعد ، يرددون أنها كانت « جلفة » ، تُستخدم لتهش على ديكة القرية فى الحقول ! . . وكان سان سيمون ، أشنع المشنعين عليها ، يقول : إنها ظلت مطبوعة ، مدى الحياة ، بطابع الخادمة هذا ، من طفولتها ، وإنها لم تعرف أبداً كيف تنظف من ضعة منبتها ، وخسة أصلها .

ويرى هذا المؤرخ أن مدام دى نيان ، لكى تتخلص منها ، زوجتها بذلك الأديب سكارون ، المصاب بالنقرس ، وكان أكبر منها كثيراً فى السن ، بحيث لايشك من يراهما فى أنه أبوها . كانت فى السابعة عشرة ، لاتملك دانقاً ، ولاتعرف من دنياها غير الركن الريفى الذى نشأت فيه . قال عنها زوجها الشيخ إنها حملت إليه ، أولا عن آخر : « عينين نجلاوين عاصيتين ، وخصراً جميلا جداً ، ويدين بضتين ، والكثير من خفة الروح . . . »

رأت نفسها ألقيت بغتة فى وسط مختلف كل الاختلاف عن الذى شبت فيه ، فاندمجت بسرعة غريبة ، وانسجمت بسهولة مدهشة . وكان بيت سكارون ملتقى أناس من كل لون : من الأدباء البوهيميين ، ومن السادة الكبار ، ومن السيدات البارزات ، ومن المحظيات والغانيات . . ولم تكن نغمة الحديث دائماً بالطاهرة النقية ، ولم يكن مسلك الزوار بالمسلك الحسن . ولم تلبث الزوجة الشابة أن عرفت كيف تجارى هذا الوسط الخاص ، دون أن تندفع فى تياره ، لكن كذلك دون أن تجرح ضيوف

زوجها بمظهر التحفظ والتحرز ، أو التزمّت والجفوة . وهذه ظاهرة من لوازم خلقها الثابتة : هذه التقية عرفت كيف تجتاز أشد الأوساط ريبة ودنساً ، وتلامس أشد المواقف حرجاً ورجساً ، وتخرج منها ولا غبار عليها .

على أنه من المحتمل كل الاحتمال أن ذلك البوهيمى العجوز ، سكارون ، حاول أن يزج بامرأته الشابة فى جو مجتمعه الإباحى . وعلى أى حال ، وكائناً ما كان جهده فى هذا السبيل ، أو ضعفها تحت تأثير ذلك الجو الموبوء ، فإن عدداً كبيراً من معاصرى مدام دى مانتنون ، كانوا مقتنعين بأنها لم تقض عشر سنوات من حياتها فى صحبة هذه العصبة السوء ، دون أن يلحقها الضر . . عزت إليها أخبار تلك الأيام الفاجرة عشاقاً عديدين ، من بين أصحاب زوجها ، أمثال : ڤيلارسو ، وڤيلار ، وبوڤرون ، ودالبير . . . ويؤكد لنا « سان سيمون » ، بلا تردد ، أنها كانت خليلة ڤيلارسو . ويستشهدون بعبارة مأثورة عن الغانية المشهورة نينون دى لنكلو : « كان سكارون صديق . وقد أدخلت امرأته على قلبى بحديثها مسرات لاعداد لها . وكنت بادىء ذى بدء أراها أبعد ماتكون عن الإحساس بالحب . . والحق أننى لم ألحظ عليها شيئاً . . ولكننى كثيراً ما أعرتها غرفة نومى الصفراء : لها ولڤيلارسو ! . . والحق أيضاً أن ڤيلارسو كان من جانبه ، على الأقل ، أشد ما يكون هياماً بامرأة صاحبه ، وظل أمداً طويلا يلاحقها بهواه ، ويحاصرها بجواه . . . »

ومما يؤثر أيضاً عن مدموازيل نينون دى لنكلو : « انه تقوى مدام

دى مانتنون كانه مرجعها ضعفاً فى عقلها ، وقد أردت شفاءها منه ، لكنها تخشى الله كثيراً »

كيف إذن يخالجنا الشك فى معين من الفضيلة فى فؤاد مدام دى مانتنون هذه ، بحيث قاومت دوافع الحواس القوية ، ودعوات صاحبتها الحارة جميعاً ؟! ربما كان فى وسعنا أن نقول إن الفضل فى هذا كله لا يرجع للفضيلة . وإن الطبيعة نفسها لعبت دوراً عجيباً فى حياة هذه المرأة العجيبة .. فالظاهر أن هذه المخلوقة « ذات العينين العاصيتين المتمنعتين » ، وذات « الخصر الجميل جداً » ، كانت أبرد النساء . . فما من رجل ، حتى ولا الملك نفسه ، استطاع الادعاء بأنه حرّك منها فؤادها ، أو حواسها . . .

وننظر كيف كان مسلكها بعد وفاة زوجها . فإن سكارون مات فى عام ١٦٦٠ ، وأرملته لم تتجاوز الخامسة والعشرين . وكان فى وسعها الزواج مرة أخرى . . أو ، إذا كانت حقاً لها عاطفة العاشقين ، تلقى بنفسها فى ساحة المتاع ، على مثال صديقتها ومستشارتها نينون دى لنكلو . . . لا شىء اليوم يحول بينها وبين ذلك . إنها حرة طليقة . وهناك ڤيلارسو مقيماً على حبها . فلماذا لا تقبل أن يتخذها خليلة سراً ، ولم تكن ربطتها به ، حتى الآن ، إلا علاقة وصداقة خالصة ؟ . . إن زوجها لم يترك لها شيئاً . وهى فى مركز حرج غير مستقر : إنه الفقر الذى لا يلبث أن يعقبه البؤس ! . . ومع ذلك لم تتحول عن خط سيرها . . فرأينا هذه المرأة الصالحة تعتزل فى الحال ، وتأوى إلى دير صغير من أديرة الصدقة يسمى « لا پتيت شاريتيه » .

إذن فهذه مدام سكارون ، فى الخامسة والعشرين ، فى نضرة الحسن ، على غاية من خفة الروح وخصب الذهن ، تفتح لها الدنيا ذراعيها ، لتستقبلها فى عالم المسرات والملذات ، فتأبى وتستكبر . . وتنطوى بين جدران دير الصدقة ؟! تكاد تنزل فيه مجاناً . . قدمت إليها غرفتها فيه عقيلة المارشال دومون ، بنت عم زوجها سكارون . فعاشت على الإحسان .

وإليك رواية أحد المعاصرين : « إن المارشالة دومون كانت ترسل إليها حتى الثياب . ولكنها كانت تتحدث إلى كثير من الناس بما تسديه ، حتى لقد اضطرت الأرملة الشابة ، ذات يوم ، إلى أن ترد إليها عربة يد بعثت بها إليها محملة بملابس قديمة » ! . .

فمن هذا نرى أن مدام سكارون ، على ما كانت فيه من فاقة مدقعة ، حرصت على كرامة عيشها . فلم ترد أن تكون القريبة الفقيرة ، التى يتشدقون بإرسال الثياب الخلقة إليها !.. وكان مسلكها ، كامرأة شابة ، مثالياً شريفاً . لم تكن تطمع من الحياة إلا فى عيش متواضع ، لكن كريم . . لذلك قامت بالمساعى عند الملكة الوالدة ، لإعادة معاش زوجها إليها ، وكان ٥٠٠ فرنك . لكن الملكة رفعته إلى ٢٠٠٠ دينار (٦٠٠٠ جنيه) : « جزاء وفاقاً ، لاستقامتها وحسن سيرتها ، وتقديراً لها واعجاباً بها » .

هذه شهادة رسمية بطيب الأحدوثة : والمسلك القويم الذى اتخذته أرملة سكارون مبدأ لها . غير أن هذا لم يحل ، فيما بعد ، بين أعدائها وبين نشر الإشاعات عن أنها طردت من الدير طرداً ، لأن الراهبات ضقن ذرعاً بهذه النزيلة ، التى ، على ضآلة ما تدفعه لهن ، تجتذب عدداً عديداً من الزوار

المترفين والمزوقين ، الذين لا يتفق مظهرهم وجلال الدير المتواضع . . يأتون إليها من كل صوب وحدب : فتقف المركبات والمحفات ، يتبعها الغلمان ، وينزل منها أرشق الناس ، وأشدهم أناقة ، وألمعهم ثياباً ، وأطيبهم عطراً . . فأثار هذا الهبوب العصرى عاصفة فى الدير ، قلبت هدوءه وسكونه . . فتمنّت الراهبات ، فى رفق ، رحيل المرأة الوجيهة الفقيرة ، التى تصطنع مثل هذه الصلات الرنانة . . أما السبب الأول لهذا الانتقال ، فهو أن مدام سكارون ، وقد صارت ذات معاش ضخم ، رأت أن دير الصدقة الصغير لم يعد خليقاً بمكانتها ، ولا بالصفوة من الناس الذين تستقبلهم فى صومعتها . . .

أجل ، إن معاش ستة آلاف من الجنيهات كفيل بأن يوفر لها عيشاً رغداً ، فى حى باريسى أنيق ، على مقربة من معارفها أهل الطبقة الراقية . لكن أتراها أهرعت إلى ذلك تغتنم الفرصة ؟ . . كلا . لقد بدا عليها أنها تتجنب الحرية وتخشاها . ولو أن امرأة سواها نالها ما نالها من حظ موفور ، ورزق ميسور ، لأسرعت للانتفاع بذلك كله ، واستخرجت منه مزايا لايستهان بها . . أما الأرملة الشابة ، فقد لجأت إلى دير آخر كبير ، هو دير الأورسلين ، فى حى سان چاك . واستمرت تعيش كما عاشت فى الدير السابق ، مقسمة وقتها بين الزيارة والعبادة . . فلعلها كانت يومئذ تعد نفسها لرسالة تقية عليا ! . ، وازدحم شارع سان چان برتل لا آخر له من العربات الفخمة ، والمحفات المزخرفة ، حاملة إليها أرقى الشخصيات . . فقد كانت تتردد على صالونات الدوقة دى ريشليو ، والمارشالة دالبير . . وعند

هذه الأخيرة تعرفت بالمركيزة دى مونتسپان . . وهو الحدث العظيم فى حياتها ، الذى كان فاتحة حظها المدهش الأعظم . . قال سان سيمون ، الذى يكرهها كراهية التحريم : « إن مسيو ومدام دى مونتسپان كانا لا يفارقان بيت المارشال . . وهناك عرفت مدام دى مونتسپان مدام سكارون ، وشعرت بالميل إليها . . . ولم تكن مدام سكارون هناك إلا واقفة دائماً على قدم الاستعداد للخدمة : تؤدى كل شىء : تضع الخشب فى المدفأة ، وتقدم الشاى والحلوى ، وتجرى لتستفهم عما إذا كانت عربة هذا السيد ، أو محفة تلك السيدة قد عادت . . ونحو ذلك من ألوف المهام الصغيرة . . »

هذا المؤرخ الحقود على مدام دى مانتنون ، الذى يمسخها على هذه الشاكلة ، ويظهرها فى مظهر الخادمة ، أغفل أن تلك المرأة كانت تحاول الإرضاء . . وكانت تؤدى ما تؤديه بكرامة ورقة ودماثة ، تشعر صحبها بأنها تعرف ما تفعل ، وأن ذلك يستلزم منهم الشكر وعرفان الجميل . .

وخلاصة القول أننا إذا أردنا أن نمثل مربية الأطفال الموعودة بأعظم عرش فى أوربا ، قلنا إنها كانت فى تلك الفترة من حياتها متوسطة فى كل شىء : فى الجمال ، وفى رجاحة العقل ، وفى الفراسة وصدق الحكم ، وفى الثقافة ، وثقوب الفكر ، ودماثة الطبع ، وفى رقة الحديث ولمعانه ، وفى المرونة والليونة ، والإحاطة الشاملة بمعرفة الناس . . مع شدة الأمانة والاستقامة ، والورع دون هوس ، والتقوى المتزنة ، والطبع الفاتر : طبع امرأة قليلة القلب ، قليلة الحواس ، قليلة الطموح . . فى هذه الحقبة من حياتها ، التى يطلق عليها سان سيمون « سنى الظلمات » ، لم تكن تعرف شيئاً

من الدس والوقيعة ، كانت بعيدة عن التهالك على المال ، تعيش عيشاً هادئاً منتظما . وكأنى بها حدّت من رغباتها بحدود معاشها ، الذى يمكنها من العيش الرغد . ومكنتها عذوبة حديثها من الاختلاط بأرقى الطبقات وخيرة من يقدرون مواهبها . أما بعد ذلك ، عند ما وضعت قدمها فى الركاب ـ كما يقولون ـ إذ أصبحت مربية أولاد الملك من المركيزة دى مونتسپان ، فقد ظهرت على النقيض مما كانت : طماعة ، ظمأى للمال والرتب جميعاً . . ظلت ثلاث سنوات قانعة بمعاشها السابق ، إلى أن أوصلوه لها ثلاثة أمثاله فى ١٦٧٢ ! . . وأخيراً ، وبعد عامين ، عند ما وهبها الملك المنحة الموعودة : المئتى ألف فرنك وبضعة الألوف ، تلك المنحة التى مكنتها من شراء ضيعة دى مانتنون ، ظهر عليها أنها بلغت من دهرها ما تمنت : فهاهى ذى ضمنت بسطة العيش فى أيام العجز ، وأمنت العوز . . كتبت إلى أخيها فى هذا الصدد : « إننى أفاوض لشراء أرض قدمت ثمناً لها ٢٤٠,٠٠٠ فرنك (نحو عشرة آلاف جنيه) ، فلا تتكلم بهذا الخصوص ، إذ لاتجوز المباهاة قط . . إن ذلك يجلب النحس . . أو كما يقول الشرقيون : « لا يحسد المال إلا صاحبه ! » . . وداعاً يا أخى العزيز . . أعتقد أننا سنقضى شيخوخة ممتعة ، إن كان فى الشيخوخة متاع ! . » . .

هذا إذن كل حلمها : شيخوخة هادئة ، فى دار مريحة ، تكون ملكها ، تحيط نفسها فيها ببعض الصحاب ، وبعض الكتب المختارة . . ذلك أنها لاتحب الضجيج والعجيج . . ولا الوساوس والهواجس . . زاهدة فيما يحيط بحياة القصر من هرج ومرج . . تعبد الخلوة ، والحياة البسيطة ، بل الخشنة

نوعاً . . (فلسوف تذكر دائماً أنها كانت ريفية) . . تنشد الفراغ ، لتعنى بصحتها ، صحة الجسد وصحة النفس على السواء . . تريد فسحة من الوقت تعالج فيها نفسها ، وتقيها بألف حيطة ، من الأمراض والعلل ، دون كبير ثقة منها بكفاية الأطباء ، لاجئة إلى وصفات الفلاحات !

وأحسب فى تاريخ نزيلة الدير هذه ، ومعتنقة التقوى ، صفحة براقة فذة . . فإن هذه المرأة التى زعمها كثيرون نصف وصيفة ، نصف خادمة ، كانت تأخذ دروساً فى مدرسة الرذيلة . . فليست صاحبتها نينون دى لنكلو إلا من نساء الهوى ، وإن كان هواها رفيعاً . . وإن كانت دروسها خطرة على تلك الريفية التقية . .

نحن لاندعى أنها اتخذت من صاحبتها نينون مثلا تحتذيه فى الإباحة أو الاستهتار . . لكننا نقول إنها تلقنت منها على أية حال تعاليم الغواية والإغراء ، والفوز بقلوب الرجال . . فجعلتها نينون تلمس بأصبعها غرور أبناء آدم ، الذكور ، وحماقتهم . . وآتتها من علمها الكثير : عن غضباتهم ، وثوراتهم على النساء ، ثم خضوعهم ، بعد ذلك ، وامتثالهم لهن صاغرين . . ذلك أن يد المرأة الناعمة أشد قوة وفتكاً من مخالب النمرة المفترسة ! . . وأن إرادة المرأة القوية أشد فعلا من كبرياء الرجال وعنادهم ، إذا عرفت كيف تغلفها بالحرير ، أو الصبر الجميل . . وعلمتها ، فيما علمتها ، أن قلوب الرجال ليست حصوناً صعبة الغزو والمنال ! . .

هذه التقية الورعة لم تتورع عن دروس الهوى . . إن فى المرأة دائماً غريزتها . . ولها أذنان ، مهما صغرتا ، فسيعرف الشيطان كيف ينفذ من

إحداهما ، إن لم ينفذ من كلتيهما معاً ! . .

* * *

هذه هى لوحة مدام دى مانتنون ، كما تبدو لنا فى اللحظة التى آتاها فيها الحظ ، يسعى إليها خفيفاً سريعاً ، ليحملها ، ويحلق بها إلى مكانة علية ، ماجرؤت يوماً على الحلم بهـا . . كان ذلك الصعود ، فى جملته ، من عمـل الصدفة ، لـكنهـا صدفة تستند إلى منابع من الذكاء المتوقد النفاذ ، الذى يكاد يرى فى فؤاد الغيب ما يعدّ له ! . .

كانت مدام دى مانتنون تلقى كثيراً مدام دى مونتسپان ، محظية الملك ، عند المارشال دالبير . فراقت لها ، بل حاولت أن تروق . . قد يبدو هذا غريباً من امرأة راضت نفسها على النسك والتقوى . فهى لا يمكن أن تجهل أن المركيزة دى مونتسپان خليلة الملك ، وأنها بهذه الصفة تخون زوجها ، كما يخون الملك زوجته . ومع ذلك راحت تطريها ، وتثنى عليها الخير كله ، لأن تلك « السيدة الجميلة » هى صاحبة الحول والطول عند عشيقها المتوج . تستطيع أن تضر وتنفع . . فأغمضت أرملة سكارون عينيها ، وسدّت أذنيها . . عملت ما تعمله الملكة نفسها : تجاهلت وجود هذه العلاقة الأثيمة . أفلا يعـد هذا التجاهل من الإيمـان ؟ . . فإن الدين يأمرنا بالغفران للمستضعفين . . كذلك كان من طبع مدام دى مانتنون : أن توفق دائماً بين فضائلها ومصالحها ! . . .

وجاء وقت سألوها فيه أن تتولى تربية بنت غير شرعية للملك ، من المركيزة دى مونتسپان . . فعلوا هذا فى رفق ، على يد سيدة تدعى مدام

دوديكور ، من صديقات الطرفين . . فكيف ترضى هذه الورعة الناسكة أن ترعى فى الخفاء وليدة الزنا ؟ . كيف يرضخ ضميرها لهذا العمل الآثم ؟ . . إن قبولها دور المربية هو اشتراك فى فاحشة الزنا المزدوج بين الملك والمركيزة دى مونتسپان . . لكن ، من جانب آخر ، كيف ترفض خدمة سئلت فيها من قوم ، فوق أنهم يحبونها ، هم أصحاب الدولة والسلطان ؟ ! لكأننا بها إذ ذاك هرولت إلى أحد كبار رجال الدين تستشيره . فوزن الأمور ما لها وما عليها . . ثم نصحها بالقبول ، نظراً لما يمكن أن تؤديه للأولاد أولا ، ثم للعاشقين . فوظيفتها كمربية ستهىء لها كثيراً لقاء الملك والمركيزة ، لقاء ترفع منه الكلفة نوعاً . . ولما كانت قديرة على الألفة والإيناس ، فما أسهل ما تجد لنفسها سبيلا لتنبيه المذنبين إلى ذنبهما . . بل ربما استطاعت أن تهديهما إلى صراط مستقيم ! . . ثم إن مركز الثقة هذا . إلى جانب محظية مسموعة الرأى ، نافذة الكلمة ، خليق بأن يمكن إنسانة مستقيمة كتوماً مثلها من أن تعلم أشياء عديدة ، وأن تحصل على نعم وافرة . لهذه الأسباب كلها يحسن بها ألا ترفض تربية أولاد الملك الحرام .

لكن أرملة سكارون ، الحذرة ، الحصيفة ، أصرت على أن تُكلف هذا التكليف من الملك نفسه . فهى من رعاياه المخلصين ، لا تعصى له أمراً . فطلب إليها الملك نفسه ذلك ، وقبلت . . كان هذا ، طبعاً ، أدعى إلى طمأنينتها ، وأمانها ، من أن تكون متعلقة بأهواء المحظية وحدها ، المتغيرة المتقلبة . فضلا عن أن المرأة تؤثر دائماً أن تطيع رجلا ، على أن تطيع امرأة . . وأخيراً ، فإنها بقبولها مهمتها ، على هذه الصورة ، تدين الملك

لها ، وهو بلا شك ذاكر شاكر ... وقد بدأ فعلا فوعدها بمكافأة مئة ألف جنيه عند ما تنجز مهمتها . . .

هذه هي الأسباب الكبرى التي جعلت ، على ما يظهر ، مدام دي مانتنون تقبل مهمة المربية . . فإن هذه المرأة التقية أرادت فعلا أن *تحتل محلها* في المكان الذي شغلته . ولعلها وعساها أن توفق إلى وضع حد لهذه الفضيحة ، وتتمكن من التفريق بين الخليلين ؟ ! ولا نغفل أنها ستجد مجالا لإظهار مواهبها وكفاياتها في التربية والتعليم .

وكذلك استيقظت ، في تلك اللحظة ، غريزتها الأنثوية ، وهبت من رقادها ، لفكرة قياس نفسها بامرأة سواها ، تحت عيني رجل ، رجل تريد أن ترضيه . . رجل ولا كل الرجال ، لأنه سيد الرجال ! . .

وسرعان ما هبت في أعماق ضميرها نسمة الارتياح . . وهنأت نفسها بأنها سوف تفوز به من غريمتها ! . .

ويمكن القول بأنه ، منذ اليوم الأول ، قد بدأت فعلا المبارزة بينهما ! . .

٨

روى المؤرخون : أن مدام سكارون كانت تسكن ، منذ يوليه ١٦٦٨ ، فى شارع تروا باڤيون ، على خطوتين من دار المارشال دالبير ، حيث لقيت المركيزة دى مونتسپان . ولعلها ، يومئذ ، كانت قد تركت دير الأورسلين نهائياً ، واتخذت — استعداداً لولادة المركيزة — مسكناً مجاوراً لبيت صديقتها ، لتكون على اتصال مستمر بها ، دون أن تثير الفضول .

على أى حال ، فقد بدأت بذلك مهام وظيفتها الجاحدة : مربية أولاد الملك غير الشرعيين . .

وما لبثت أن أدركت أن المهمة لن تكون سهلة . وكان أشد مايؤلمها فيها اضطرارها إلى ألف حيلة وحيلة لتخفى شواغلها الحقيقية عن معارفها . عبء باهظ ، ومسئولية خطيرة : أن تربى بنت صاحب الجلالة ، أو إن شئت قل بنتاً يتيمة ، ما دام قد فرّق بينها وبين أمها ! . . حدثتنا هى نفسها عن شدائدها ومتاعبها فى ذلك الزمن : « كنت أذهب غالباً على القدمين ، من مرضع إلى مرضع ، متسكرة ، حاملة تحت ذراعى الثياب ، واللحم ، وما إلى ذلك . . أقضى أحياناً الليل كله عند أحد أولئك الأطفال ، إذ يكون مريضاً ، فى بيت صغير ، خارج باريس . وأعود إلى بيتى فى الصباح ، لأدخل من باب خلفى صغير ، وبعد أن أغير ثيابى ، أخرج من الباب الكبير ، وأركب عربة للذهاب إلى دار دالبير ، أو ريشليو ، حتى لا يلحظ

معارفى شيئاً ، ولا يشتبهوا مجرد اشتباه فى أن لى سراً أحافظ عليه . . »

استمر الحال على هذا المنوال إلى صيف ١٦٧٠ ، حيث أمكن الجمع بين الطفلين الأولين فى بيت كبير منعزل ، محوط بالحدائق ، فى آخر شارع ڤواچيرار . وعندئذ اختفت مدام سكارون عن معارفها ، أو كادت !

أحدث هذا كله تأثيره المؤلم فيها . فهى تحب الراحة والهدوء . تحلم بالعيش فى ركن مريح ، بجوار المصطلى ، فى غرفة مغلقة . . .

وها هم أولاء يضطرونها إلى الجرى هنا وهناك ، على القدمين ، من مرضع إلى مرضع ، تقضى سواد الليل إلى جانب فراش رضيع مريض ، وتتخلى ، بسبب هذه العناية المأجورة ، عن كل صلاتها الجميلة ! . .

لكن ، لم تكن تلك غاية متاعبها وآلامها ! . . فقد عينوها لتربى بنتاً صغيرة . . وهاهم أولاء ، فى السنة التالية ، يأتون إليها بولد صغير . . وهكذا ، وهكذا دواليك ، فى كل عام تقريباً . . فليس يعزب عن البال أن المركيزة دى مونتسپان أنجبت رسمياً من الملك سبعة أطفال ! . .

شواغل تتراكم عند هذه المربية فوق شواغل . . وهذا عندها ، وهى المرأة التقية ، عار على عار : تتأفف منه نفسها ، ويتمرد عليه ضميرها : إنها بدلا من أن تضع حداً لهذه العلاقة الشائنة ، المزدوجة الإثم ، قد ساعدتها ، وشجعتها ، بتواطؤها واشتراكها فيها : ترى كيف تضاعفت ثمراتها ! . . فياللعار ! . . وياللندامة : أن تكون مشتركة ، هكذا ، على رغمها ، فى خطيئة الملك وخليلته ! . .

زد على تأنيب ضميرها : ماتلقاه من ويلات المركيزة مونتسپان . . فقد

كانت لها سورات غضب تحتد فيها على مربية أطفالها ، وتزجرها ، وتغدر بها . . لم تكن تنتظر منها كلمة المعروف ، ولم تكن تلقى عندها أماناً . وهكذا كانت « أتنائيس الجميلة » تعامل أرملة سكارون كمجرد خادمة ، تعنّفها على ما لا عداد له من تفاصيل خدمة الأطفال ، والعناية بهم ، وتربيتهم ، وعلاجهم ، وغذائهم . . وتلومها ، وتتهمها بسرقة قلوب أولادها ! . .

اجتهدت المربية فى احتمال هذا كله ، صامتة ، صاغرة . . حتى طفح الكيل ، وفرغ الصبر . ففى سبتمبر ١٦٧٤ ، بعد خمس سنوات فى هذا السعير ، كتبت إلى الأب جوبلان ، رئيس الدير ، الأمين على سرها ، الذى يتلقى اعترافها : « لا أفهم أن تقضى إرادة الله علىّ بأن تعذبنى المركيزة دى مونتسپان . فهى لاتعرف ماهية الصداقة ، التى لاغنى لى عنها . . فكأنها لى عدوة كارهة . وهى تحيلنى إلى الملك ، بينا تحمل علىّ ، ما طاب لها أن تفعل ، وتضيع علىّ عنده اعتبارى . ومركزى منه دقيق حرج ، لا أجرؤ على مخاطبته رأساً ، لأنها لن تغفر لى هذا أبداً . . وعندما أخاطبه لاأستطيع أن أجرحها لديه ، لما أنا مدينة لها به . . وعلى ذلك لا أجد علاجاً لما أعانيه من آلام . . »

هذه الرسالة ، على غرابتها ، وثيقة : نرى من خلالها شيئاً من النضال الناشب ، من المبارزة بين المرأتين ، ونتبين أن مدام دى مانتنون تحاول اجتذاب خصيمتها ، واتخاذها صديقة لها ، لتحملها شيئاً فشيئاً على تغيير مسلكها . لكن أتنائيس الشائقة حزرت اللعبة بلا ريب ، وأوجست خيفة من الشرك المنصوب ، فلم تقع فى حبالها . . بل اعتزمت العمل على أن تبقى أرملة

سكارون فى مكانها ، مربية ، لاتتعدى وظيفتها ، وكانت هذه قد ضجرت من سوء معاملتها ، واشمأزت من تكرار ولادة أولاد الحرام ، الذين يتساقطون عليها عاماً بعد عام ، فهددت باعتزال عملها المضنى ، الذى لاتلقى عليه حمداً ولاشكوراً . . غير أن المركيزة التى لم تكن تستطيع الاستغناء عنها ، أحالتها إلى الملك » . أى أن الملك ، بناء على تحريض المركيزة ، خاطب أرملة سكارون ، آمراً أمر السيد الذى لا يرد له قول ، محملا إياها أعباء ولد جديد ! . . فأطاعت ، وقد بلغت روحها التراقى ، دون أن تكسب من فؤاد المليك كثيراً ولا قليلا . والواقع أن لويس الرابع عشر كان قد استمع إلى تنبيهات المركيزة ، فاعتبر المربية مخلوقة عسرة الخلق ، « شاذة » ، تحسن مع ذلك ملاينتها ، نظراً للحاجة إلى خدماتها . .

أضنت هذه الحرب مدام دى مانتنون ، فانتهت ـ بعد شجار أشد مايكون عنفاً ، ظل عالقاً بذهنها إلى آخر العمر ـ بشكواها إلى الملك . كان ذلك فى ٢٦ فبراير ١٦٧٥ ، يوم « عيد الرماد » . فكتبت إلى الأب جوبلان : « وقع بينى وبين المركيزة دى مونتسپان ما لا تحمد عقباه . وكان الملك شهيداً على ماجرى . . هذه المنازعات المستمرة ، إلى جانب متاعب الأطفال المتواصلة ، تجعلنى فى حالة لا أستطيع معها بعد ذلك صبراً ، ولا احتمالا »

وإليك الواقعة : كانت مدام دى مانتنون يوماً وحدها مع المركيزة دى مونتسپان ، عندما نشب بينهما خلاف ، تأججت ناره إلى حد لم يسبق استعاره ، وإذا بالملك يفاجئهما ، فلما رآهما على هذا الهياج ، سأل عما جرى . . فقالت مدام دى مانتنون للملك ، وهى أثبت ما تكون جناناً :

« إذا سمحتم جلالتكم بالانتقال إلى الغرفة المجاورة ، فإنى أتشرف بعرض جلية الأمر » . فذهب الملك .. وتبعته مدام دى مانتنون . وبقيت المركيزة وحدها . ولما رأت المربية نفسها وحدها مع الملك ، لم تخف عنه شيئاً : فرسمت صورة شنيعة لقسوة المركيزة ، وغلظتها .. ولم يكن الملك جاهلا ما عليه صاحبته . لكن لما كان ما زال هائماً بها ، فقد حاول أن يسرّى عن مدام دى مانتنون ، ويلطف مابها ..

وهكذا قررت المربية أن تخاطب الملك .. فعلت ذلك فى وضح النهار ، بين سمع مضطهدتها وبصرها .. لكنها أدركت أن الملك خاضع مطيع لخليلته ، لايكاد يجرؤ على أن يقاومها ، أو يعصى لها أمراً . فما أدعى هذا إلى اليأس ! .. إنها اليوم أبعد مما كانت أبداً فى الفصل بين العشيقين وهدايتهما سواء السبيل ! .. إذن ، فيم العناد بلا طائل ؟ .. لقد حصلت الآن على مكافأة جزيلة لخدماتها ، إذ منحها الملك ضيعة دى مانتنون وأراضيها ، فكفل ذلك لها « الشيخوخة الممتعة » التى طالما تمنتها .. فماذا يعوقها ، إذن ، عن الاستقالة من مهامّها ؟ ..

المفروض عندئذ أن نفوذ الأب جوبلان ، وتأثير عصبة التقاة من أهل البلاط ، كليهما ، قد أقنعاها بالبقاء فى مركزها .. ومادامت لاتستطيع للمركيزة نفعاً ولا ضراً ، فلتمض فى مخاطبة الملك ! .. لتكن مبعوثة العناية الإلهية ، ومندوبة عصبة الخير التى يرأسها « بوسويه » ، والتى تحاول التفرقة بين الملك وخليلته ! .. إن لدى مدام دى مانتنون رسالة تؤديها : هى خلاص الملك . فهل تراها تخون بعثتها ، وتنبذ رسالتها ، وتخيب آمال

السماء التى عقدتها عليها ؟!.. أمام تلك الحجج لم يسع تلك الورعة الصادقة إلا أن تنحنى لهذه المهمة العلوية ، فضلا عما يراود نفسها من رغبة خفية فى الفوز على خصيمتها ، والانتقام من غريمتها !..

كثير من الذين عالجوا تحليل النفسيات التاريخية ، لاموا مدام دى مانتنون على اشتراكها فى تلك المؤامرة المبيتة ضد امرأة ، مهما قيل فيها ، فهى مدينة لها بكل شىء . ولكن حرام أن تُتهم أرملة سكارون بالغيرة ، أو الختل النسوى ، خبط عشواء ، فإذا كانت قد طوت جوانحها فعلا على إذلال المركيزة العابثة ، فذلك لزعمها أنها تلبى واجبها من رد المذنبين إلى حظيرة الكنيسة .. فما كانت عاقبة هذا الدس كله ؟ .. كان من آثاره أن قضى الملك عيد الفصح ، تلك السنة ، فى كنيسة فرساى ، وأبعدت المركيزة دى مونتسپان عن البلاط .. وبعد فترة من الزمن سافرت المربية إلى « باريج » ، لتتعهد صحة أكبر أولاد الحرام الذين فى رعايتها ، وكان تحت العلاج .. فلما عادت رأت أن المركيزة استردت حظوتها ، إذ لم يقدر الملك على بعدها ، فاستقرت من جديد فى القصر ، ولم يعد الملك يفكر فى خلاص روحه وجلده من عذاب جهنم .. بل سلم مخطيته جلده وروحه ، تفعل بهما ما تشاء .. وعلى ذلك ، كان لا بد من البدء ثانية ، وإعادة غزل النسيج الذى تعقّد من جديد ...

عندئذ طفق الفطناء من أهل البلاط يلاحظون ، بعين التطلع ، تغلغل مدام دى مانتنون . فقد بدأت عملا من التقرب ، راسمة خطة حربية ، عبأت فى سبيل تنفيذها كل ما أوتيت من كنوز الصبر والمرونة ، وقوى الحذق

والتدبير، لتصل إلى الفوز بروح الملك . وبرغم كل ما كانت تصبه عليها « أتنائيس الجميلة » من جام غضبها ، وحقدها ، وتمرمرها ، فقد عرفت المربية الأريبة كيف تتمالك نفسها . ومنذئذ لم تعد ثمة مشاهد سخط ويأس ، ولو ظاهراً . . وراحت تتحدث إلى العاشقيْن المذنبين فى الواجب وفى الدين . وأقنعتهما ، أو على الأقل أقنعت الملك ، بتجردها من الغاية والغرض فى دعوتهما إلى إيثار الرشد على الغى : فهى لا ترمى إلا إلى خيرهما ، وخلاصهما ، ووجه ربك ذى الجلال .. ومهما تكن نقمة المركيزة ، وثورتها على هذه الموعظة الحسنة ، التى ستكون عواقبها وبالا عليها ، فقد كانت مضطرة إلى الاعتراف بأن مدام دى مانتنون تنثر الدر من فيها ، وأنها فى الجملة على حق . كذلك الملك كان مضطراً إلى الاعتراف ، بأنه ، إذ يعاشر محظيته فى القصر الذى تسكنه زوجته الشرعية ، إنما يدوس بقدميه واجباته كمسيحى ، ويخالف كل عرف خلق ، ويشين مسلكه السياسى ، الذى يتطلب البعد عن المسلك المفضوح . .

ولم تكن أرملة الشاعر سكارون لتتخذ لهجة الشيخ « المطمطم » ، أو ترتدى مسوح الراهب الأسخم .. بل كانت تغلف دعوتها بآيات من الرقة والملق ، حتى لان قلب الملك ، واستمع لها . . . وكان عملها هذا أشبه بنقطة الماء التى تثقب الحجر ، بعد سنين . . . فقد بذلت فى تبشيرها الدقيق الرقيق فعلا خمس سنوات ، أو ستاً . . ومع هذا كله ، فمهما كان من أثر دعوتها عند الملك ، فقد كان من المحتمل كل الاحتمال ألا يقطع ما بينه وبين المركيزة دى مونتسپان ، لولا مأساة السموم التى هزّت كيانه ، وجعلت بلاط فرنسا

مضغة الأفواه . . فقد كان لا بد للملك من برهان دامغ على أن خليلته أرادت أن تسممه ، حتى ينتهى ما بينهما . . .

ولم يكن يعز على مدام دى مانتنون الوقوف على بعض الاتهامات الشنيعة الموجهة إلى خصيمتها . فما أكثر اللغط الذى كان يدور حول هذه المخزيات . فلعلها عندئذ ، وهى نهّازة الفرص ، عرفت كيف تصدر حكمها القاسى على غريمتها ، لتردع الملك عنها . وها هى ذى الأوضاع انقلبت ، والأدوار انعكست ، وأصبحت أتنائيس الجميلة ، ترتجف لمرأى مربية أولادها ، وتتملق ، وتحاول أن تجرد تلك التى تمقتها ، من صميم فؤادها ، من سلاحها . . وفى تلك الأثناء ، كانت مدام دى مانتنون ، اللبقة ، باردة كالعقل ، هادئة كالواجب ، فلم تعارض فى هذه الكوميديا . . كتبت فى ٢٧ مايو ١٦٨١ رسالة إلى المركيز دى مونتشفراى : « . . . سرت مع المركيزة دى مونتسپان اليوم بعض الطريق ، أذرعنا ملتفة ، وضحكنا عال . . ولسنا ، بهذا ، خيراً مما نحن . . »

فلنتصور إذن هذا المشهد العجب : « السيدة الجميلة » مغلوبة على أمرها ، تتظاهر بتقبيل غريمتها ! . . وهذه مترفعة ، مبتسمة ، تتلذذ برؤية المحظية عند قدميها : فهى تعلم أنها منذ الآن تملكت قلب الملك ، وسادت روح السيد ! . .

٩

كيف حدث هذا ؟ . . بأى نوع من الاستغواء استطاعت هذه المرأة ، التى فى التاسعة والأربعين من العمر ، والتى تكبر الملك بثلاث سنوات ، والعاكفة على العبادة والتقوى ، أن تأسر فؤاد هذا الشهوانى الجبار ، الذى كان لويس الرابع عشر ؟

إن الأمر ليبدو عجباً عجاباً ، ويتناهى فى العجب إذا علمنا أن الملك كان يحس نحوها ، بادىء ذى بدء ، بالنفور . . فقد مثلتها المركيزة دى مونتسپان لعينى عشيقها فى صورة الأرملة الشاذة ، الشرهة ، الشكسة ، التى لا ينقطع معها نزاع ، ولا يسود معها سلام . . وكانت مدام دى مانتنون تعرف فيه هذا الشعور ، تقرأه فى عينيه ، وتراه يتهيب التحدث إليها ، ويهلع من شدة تقواها ! . . فهى عنده تزعم أن مملكة عظيمة كفرنسا ينبغى أن تحكم بالقواعد القاسية ، والمبادىء الصارمة ، التى تطبق فى دير . . . فعمدت إلى محو هذا الشعور السىء فى نفسية الملك من جهتها . . أخرجت من جراب سحرها فنوناً ترقى الملك بها ! . . فلما رأته أصاخ إليها بسمعه ، شكت إليه غضبات المركيزة ، وسوءاتها . . وكان نصيبه هو أيضاً من هذه السورات غير قليل . فهما إذن — الملك والمربية — ضحيتان ، أولى بهما أن يتبادلا العزاء ، لا الشحناء . وبرعت المربية النابغة فى إظهار السماحة نحو تلك التى تعذبها — وتعذبه ! — فقد كان الملك ما زال مشدوداً بحبائل الهوى إلى

خليلته، يعرف عيوبها، ولكنه يحب مزاياها. قال يوماً لمدام دى مانتنون، يصبرها على بلواها من غضبات محظيته: «أفلم تلحظى أن عينيها النجلاوين تترقرقان بالدموع، عندما تسمع بشيء مؤثر كريم؟..»

وبالتأكيد كانت المركيزة دى مونتسپان خليقة بأن تبكى إعجاباً.. لكنها كانت غالباً تبكى من السخط.. فيهتز الملك لغضبها ويرتاع. هو، الحريص على الهدوء والصفاء، هو الذى يخرج من مكتبه مجهداً مكدوداً بشواغل الدولة، ومشاكلها المرهقة، ينشد صفو الحياة فى خلوة المرأة الظريفة الحبيبة.. فكان، عوضا عن ذلك، يجد المرأة الغضوب تتفجر شرّتها، وتستعر هيجتها. فياللتناقض الذى بينها وبين هذه الأرملة الكسيرة، اللطيفة، الباسمة!.. ولم يكن ذلك دائماً حملا خفيفاً. كان عليها أن تخفى ذات مشاعرها، ومتاعبها، وتمرمرها، وقنوطها، ومخاوفها.. وتقابل الملك بوجه ضاحك مستبشر.. كتبت فيما بعد، إلى مدام دى برينيون إحدى صاحباتها: «عندما عاد الملك من الصيد، جاء إلى. وغلقت الأبواب، حتى لايدخل أحد. هأنذا معه وحدى!.. لا بد من تسرية أحزانه، إذا كان حزيناً، وتصريف همومه وأكداره.. وهو أحياناً يغلبه الدمع فلا يتمالك، أو يعتريه سهوم ووجوم، فنلزم الصمت...»

وقد يحدث أن يجىء الملك وهو غاضب، فيعنف نجيته ومستشارته، ويصب على رأسها الملام، ويرفض ماتسأله إياه.. لكنها تلقى هذا كله أيضاً، كما لو كان يحاسنها ويداهنها!.. قالت: «إن حياتى كانت أعجوبة، عندما أذكر أننى ولدت نافدة الصبر، ومع ذلك لم يلحظ الملك قط شيئاً

من ذلك ، وإن كنت كثيراً ما ضاق صدرى ، وهممت بترك كل شىء . . وأذكر أننى خلقت صريحة ، وكان لابد لى دائماً من الإخفاء فى السنين الأولى من حظوتى ! . . وكنت أحياناً أغضب إذا ما أبى الملك تلبية ماسألته إياه لأقاربى وأصدقائى . . لكننى أحمد الله على أننى قضيت ، بعد ذلك ، ستة وعشرين عاماً ، دون أن أقول كلمة تثير علىّ أقل الكدر . وكنت أحياناً أضيق ذرعاً ، وأهم بمغادرة البلاط ! . . ولا يعلم إلا الله وحده ما عانيت فى تلك الأزمان ! . . يدخل الملك حجرتى ، فألقاه ضاحكة ، لا أفكر إلا فى إدخال السرور على فؤاده ، وعزله عن النساء ، وهو ما لم يكن فى وسعى ، لولا أنه كلما دخل علىّ وجدنى هاشة باشة . وإلا لراح ينشد مسراته عند سواى . . ورأيت أن الله جعلنى حيث أنا ، لأروّح عنه ، وأذهب عنه الحزن ، وأطهره تطهيراً . . وهذا ما جعلنى أصمم على ألا أبدى له كدرى ، عندما يرفض لى شيئاً . . . »

لم يكن عليها أن تسلى الملك ، وتقوى روحه المعنوية ، وتسرّى عنه شواغله العائلية ، أو همومه السياسية ، وهو الذى يؤلمه أشد الألم أقل فشل فى حكمه . . نقول : لم يكن عليها كل ذلك فحسب ، بل ما هو أصعب منه وأقسى : أن تسره وتروّح عنه . . وما أصعب الترويح عن ملك مكدود مضنى فى شؤون داخلية وخارجية كبرى . ما أحوجه إذن إلى ألوان من الحديث الشائق ، الممتع ، العذب ، الذى يرسمه عقل الأرملة الأريبة : مدام دى مانتنون ، وينطقه لسانها ! . .

وهكذا قضت مدام دى مانتنون خمساً وثلاثين سنة من عمرها فى

إدخال السرور على قلب الملك ! . . أما ما راقه فيها ، خاصة ، فهو ما انطبعت عليه من التقوى والصلاح ، ومن الحنان والشفقة .

ولا مراء فى أنها ساعدته على الخروج من الأزمة الروحية التى أصابته على يدى مونتسپان ، ومن سبقها من المحظيات . . أيدته بكل قواها ، ليكون فى حياته مثلا كاملا لرعاياه . وكان ، فى تلك الآونة ، ما يزال مزعزعاً مروعاً بما اكتشف من مخازى المركيزة وجرائمها ، تلك التى مثلت أمام عينيه عبقرية الشر . . فعرفت أرملة الشاعر سكارون : كيف تنتهز فرصة هذا الضمير الرازح تحت أثقال الندم ، وهذه النفس الحائرة الهائمة ، فتوجه هذا الاستعداد للتوبة فى نفسه ، إلى النفور من غريمتها : من المرأة التى جعلتها تشق ، والتى تريد هى أن تأخذ مكانها ، وتحل محلها ! . . أليس الملك لها صديقاً أشبه ما يكون بالحبيب ؟ . . أليس متعلقاً بها ، لا يكاد يلجأ إلا إليها ، ولا يكاد يشكو إلا لها ، ولا يكاد ينشد الصبر إلا عندها ؟ . . . لكنها قلقة بعض الشىء من هذا التقرب الحار إليها . . ولكنها أيضاً تعرف كعادتها أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وتعرف أن واجبها يتفق دائماً مع صالحها ! . . .

وكائنة ما كانت هذه المزايا ، والفضائل ، والمواهب ، والمغريات . وكائناً ما كان تقدير الملك لمدام دى مانتنون ، فما كان هذا كله ليفسر أو ليبرر عزمه على الاقتران بها . . . فقد سنحت لتلك المرأة اللبقة فرصة خارقة للعادة ، ففى ذات اللحظة التى بلغت فيها ذروة الرضاء العالى ، قضت الملكة نحبها ! . .

* * *

أيعود الملك فيتزوج ؟ . . وممن ؟ . .

ليس ذلك أمراً سهلا . ففى ذلك العهد ، لم يكن فى أوربا أية أميرة تسمح سنها أو مكانتها بالاقتران بملك فرنسا . فهل يعثرون له على واحدة تجدد له التجربة الحزينة ، التى قضاها مع زوجته الشرعية ؟ . . حقاً إن الملكة ماري تريز كانت سيدة ممتازة ، موفورة الصفات ، لكنها أثبتت أنه لا يكفى أن تكون بنت ملك لتكون جذابة فاتنة . ولويس الرابع عشر لا يريد أن يبدأ ثانية مثل هذا القران . وهو يقدر أنه ، وقد أعطى التاج ورثة شرعيين ، وأدى ، إجمالا ، أداء مقبولا فى مجموعه ، خلال ثلاث وعشرين سنة ، واجباته كزوج ، أصبح له أخيراً بعض الحق فى أن يختار الرفيقة التى تحلو له . . . فهل يعود فيسقط تحت نير خليلة ؟ . . إن المركيزة دى مونتسپان أزهقته من ذلك ، ونفرته ، مدى الحياة . . فضلا عن أن مدام دى مانتنون لم تخلق لدور المحظية ، ولا يمكن أن ترضاه . أما أن تظل مختارته الروحية ، فما يثير الشبهات ، ولا يكفى النزعات . . إذن فما هو الحل ؟ . .

الملك يريد أن يستقر ، قطعاً ، ويريد كذلك أن يتخذ زوجة توافق مشاربه ، وهو لا يريد أن يتزوج ، حباً لشعبه ، وإشفاقاً على مستقبله . فهو يرى لنفسه ثلاثة أحفاد ، ويحكم ببعد نظره على أن مولد أمراء من صلبه ، من زوجة أخرى ، قد يؤدى ، على مرور الأيام ، إلى حروب أهلية . بيد أنه كذلك لا يستطيع أن يعيش بلا امرأة .

وكانت مدام دى مانتنون تروقه ، وتقع من نفسه . . يفتنه روحها ، ويشغفه حديثها . . . هى ظريفة ، ما فى ذلك شك . . وهى فى السن نَصَف ،

لا تكون منها المرأة الولود ... فلهذه الأسباب كلها ، كانت فى عينى الملك امرأة أحلامه ! . . لكن ، يا له من زواج أبعد ما يكون عن التكافؤ ! . . أين الأصل الرفيع ، وأين الحسب العالى ، وأين الدم الأزرق ؟ . . إنها لم تبلغ حتى مبلغ المركيزة دى مونتسپان التى تعد من أهل النبل ! . .

وبادرت حاشية لويس الرابع عشر تمثل له بشاعة هذا القران ، وأنه سيكون أضحوكة أوربا ! . . وأنه سيكون معرة الدهور ! . . وارتمى لوڤوا ، وزير حربه ، عند قدميه ، ليمنعه عن ارتكاب هذه المخزية ، التى تنقض كل عرف ، وتخرج على كافة التقاليد ! .. أيذهب الملك الأعظم إلى حد الاعتراف بأرملة الشاعر سكارون ، ملكة على فرنسا ؟ !

عندئذ اختار الملك حلا وسطاً ، فهو بمبدأه يتجنب الضجات الفارغة .. وعلى ذلك لن يعترف بمدام دى مانتنون ملكة على فرنسا ، لكن يتزوجها ! .. يتزوجها لأنه يحبها ، ولا يستطيع الاستغناء عنها ... وبهذا يهوّن ، ولو قليلا ، من الهياج والنفور حوله ...

إذن فهو يحب الأرملة الصالحة ! . . بكل ما فى الحب من معان يتطلبها الرجال فى النساء .. ولم يكن بالرجل الذى يعف عن الجمال الجسدى الأنثوى .. وهى ، وقد سلخت من عمرها تسعاً وأربعين سنة ، ما زالت محتفظة ببعض فضلات من جمال . . وإن « عينيها العاصيتين » . و « خصرها الجميل جداً » ، اللذين ذكرهما زوجها الأول ، كانا ما زالا من خصائصها ! .

وهكذا حدث ، فى منتصف إحدى الليالى ، فى إحدى قاعات ڤرساى ، بحضور رئيس أساقفة باريس ، « لوبير دى لاشيز » ، وبونتان الوصيف الشيخ ، وبعض المقربين : أن عقد قران الملك الأعظم ، الذى كان يومئذ

فيصل أوربا ، على أرملة الشاعر سكارون . وأصبحت مدام دى مانتنون ملكة بلا لقب ، ملكة شديدة التقوى ، وحارسة الكنيسة ، وإحدى دعامات الدين . . ولا يلبث البابوات أن يكتبوا إليها : « إلى بنتنا العزيزة فى يسوع المسيح ، النبيلة مدام دى مانتنون ... » ، ويمنحوها وسام « الوردة الذهبية » ، الذى يهدى إلى الملكات ! . .

فلنتصور تأثر صاحبتنا الشيخة هذه ، وانفعالها ، إذ رأت نفسها تُنشل من أعمق وهدة للخمول والضعة ، فترتفع إلى السماكين منزلا ! . . يا لهذا المصير الذى يحير الألباب ! . . أى شىء يخبئه الزمان للإنسان ، لأى إنسان ، كائناً من كان ؟ ! أى خفايا وألغاز يتمخض عنها القدر ، بلا انقطاع ، فى كل مكان ؟ ! هذه امرأة كان زوجها الشاعر الوضيع مشلولا طريح الفراش ، تقف على خدمته فتاة أنقذها من ذل حراسة الدجاج فى الريف ، وهاهى ذى ، بين غمضة عين وانتباهتها ، أصبحت ملكة فرنسا غير المتوجة ! . سبحانك ربى ، تعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الملك ، إنك على كل شىء قدير ! . .

* * *

اتخذ الملك من هذه الشيخة الصالحة زوجاً له ، ظن أنه وجد فيها شريكة . وكان من مبادئه المقررة شدة الحذر من تدخل النساء فى شؤون الحكم . فعليهن ألا يتدخلن فى أمر من أمور الدولة ، ولا حتى فى تعيين أى فرد فيها ، مهما صغر شأنه . وكان للملك فى هذا الصدد رأى جلىّ حازم صارم ، أوضحه ببلاغة فى « مذكراته » ، قال : « قلب الأمير يُغزى ، كما يغزى ميدان . والعناية الأولى توجه إلى الاستيلاء على جميع الأماكن التى

يمكن بها الوصول إليه . والمرأة اللبقة تحرص على إبعاد كل ما ليس فى مصلحتها . فهى تحيط البعض بالشبهات ، وتكيل التهم للبعض ، وتثير النفور من البعض الآخر ، لكى تبقى هى نفسها وأصحابها محل الرعاية والإصغاء ، فإذا لم نأخذ حذرنا من هذه المناورات ، ونقفها عند حدها ، أدى إرضاؤنا لهذه المرأة وحدها إلى إغضاب بقية الناس . . وأخيراً نتبين ، إن عاجلا وإن آجلا ، أننا نفقد خيرة خدامنا المخلصين ، أو ننفر منهم ، وأننا نهدم سمعتنا . فالنساء ينجحن فى كل ما يعرضن له ، ولا يمكن أن يحمينا أو ينجينا منهن إلا شىء واحد ، هو : ألا نبيح لهن حرية الكلام فى أى شىء ، ما خلا المسرات الخالصة . . وألا نفتأ نحصن أنفسنا من تصديقهن فى شىء ما ، ما دام يتعلق بأعمالنا ، أو بالأشخاص الذين يخدموننا . . »

فمن هذا ترى أن لويس الرابع عشر كان واقفاً لهن بالمرصاد ، حذراً من مدام دى مانتنون حذره من الخليلات اللواتى كن له من قبل . . لكنه كان واثقاً من أن رفيقته الجديدة هى استثناء نادر فى جنسها ، والنادر لا حكم له . . فقد كانت امرأة حصيفة ، لبقة ، أريبة ، ذات روح سياسى . . امرأة متينة . . وكان الملك يدعوها : « صاحبة المتانة » ! . .

ومهما يكن رأيه فيها عظيما ، فقد كان لا يريدها أن تتجاوز حد المشورة فى الشؤون المعضلة ، باعتبارها سيدة حكيمة ، غير متحزبة ، ومشبعة بأطيب النيات ، وأصدق الرغبات . لكن ليس لها أن تحاول التدخل فى المسائل الحكومية . وكانت من ورائها « عصبة التقوى » التى دفعتها وأيدتها ، وربما هى التى قادتها إلى مكانتها ، ترغب لو اتخذت هذه المرأة ،

صنيعتها ، دوراً أشد فعلا وأبعد أثراً فى الشؤون العامة ، فخضعت أحياناً لمطالب العصبة ، زعماً منها أن ذلك واجبها ... لكن الملك ، وهو شديد الحساسية فى هذه الأمور ، شديد الغيرة على سلطته ، بادر إلى وقفها عند حدها ، بغلظة : « فيم تتدخلين ؟ . » . . وكان يتعنت خاصة فيما توصى هى به من تعيينات ، وترقيات . . أو تزكيه من إنعامات ، أو إحسانات . . كان يكفى أن تعلن صراحة ميلها إلى هذا أو ذاك ، ليكون ذلك سبباً كافياً فى عينى الملك ، لاستبعاد موضع رجائها ، لافرق فى ذلك بين أهلها وأصدقائها المقربين . ولم تكن تغضب من ذلك ، بل تتقبله بصدر رحب ، ودماثة خلق . . وكان الناس جميعاً ، من الأمراء فنازلا ، يظنون أن لها يداً عند الملك لاترد ، وأن كلمتها هى السارية . . نوهت بذلك صاحبتها مدموازيل دومال فى « ذكرياتها » : « إن بعضهم كان يجىء ليشكرها على قضاء حاجته ، فتلتفت إلىّ وتقول : « لو أننى تدخلت لصالحه لما وفق هذا التوفيق » !

أجل ، « كانوا يظنون أن لها نصيباً فى كل شىء » . . وهذا ما يفسر التناقض الذى تخبط فيه معاصروها ، بشأن نفوذها السياسى . وكانت هى لا تنفك تردد أنه ما من تأثير لها ولا نفوذ ، وليس من يصدقها . .

كانوا يؤكدون ، بلا تردد : « إن مصير الدولة يقرر فى حجرتها . فيغلق الملك على نفسه حجرته ؟ حتى يحين العشاء . . ويقصده وزير المالية المسيو دى بونشارتران . . بينا تكون مدام دى مانتنون تطرز فى ركن ، دون أن تبدو عليها سمات الانتباه إلى ما يجرى إلى جانبها . . ولكن عند كل اقتراح من هذا الوزير ، يلتفت الملك نحو مدام دى مانتنون ويسألها : « ماذا ترين

فى هذا ياسيدتى ؟» .. فتبدى بتواضع رأيها ، وكل ما تقول به يكون ... »

ومما لا شك فيه أن أكثر تلك الاقتراحات يكون متعلقاً عادة بمعاشات ، لا بالسياسة العامة . . فإن الملك الذى يثق باستقامة مدام دى مانتنون وأمانتها ، كان يرى هنا من الطبيعى استشارتها .

على أنهم يدعون أنها ذهبت إلى أبعد من ذلك بكثير . . وكان لها فعلا رأى مسموع فى سياسة الملك .. وذلك جائز أيضاً ، وقد ثبت ، فى حوادث وظروف وملابسات داخلية وخارجية عدة . . فإن من يطمئن إلى أمانة النصح ، وسلامة الرأى فى صغائر الأمور ، أولى به أن يبادر إلى التزود من هذا المعين الحكيم فى المهام العظام . . كذلك كانت فيما يختص منها بالمصلحة العامة ، وازدهار المؤسسات الدينية والمبرات ، عاملا كريماً خيّراً ، إلى جانب زوجها لويس الرابع عشر . . كانت إلى جانب الملك وزيراً حقيقياً لشعائر الدين ! . .

ظل الملك وفياً للعهد الذى قطعه على نفسه بأن يبعد محظياته عن السياسة ، ولم يتردد فى تطبيقه على زوجته المتوجة مارى تريز ، ثم لم يتردد فى تطبيقه على زوجته مدام دى مانتنون ، وكل ما تمناه من هذه أن تمحضه النصيحة الصادقة ، لشدة غيرتها ، مثله ، على مصلحة الدولة ، وشدة إخلاصها لزوجها ومليكها ، بحيث لا تتردد فى تنبيهه وتحذيره من دسائس وزرائه ومحاسيبه ، ومكائدهم . . وكأنى به محاط من كل جانب بمؤامرة دائمة ، للحيلولة بين الحقيقة وبين وصولها إلى سمعه وبصره . . وستكون مدام دى مانتنون هى تلك التى تقول الحقيقة ، تلك التى تنفذ نظرتها الثاقبة إلى أعماق القلوب ،

لتكشف عن أكاذيب السدنة والخدام الخائنين . . لهذا اعتاد الملك العمل عندها ، مع هذا الوزير أو ذاك من وزرائه . .

صور لنا المؤرخ سان سيمون هذا المشهد مراراً وتكراراً ، صوره تصويراً دقيقاً ، بحيث يخيل إلينا أننا نراه رأى العين : « إلى جانب المدفأة جلست مدام دى مانتنون فى مشكاتها « كوشتها » ، المصنوعة من الدمقس الأحمر ، خشية تيارات الهواء ، وأمامها منضدة عليها سلة بها أدوات الحياكة والتطريز . . وتظل هذه الساحرة العجوز تخيط ، كما كانت تفعل فى صغرها ، أو تشد الإبرة على المنسج ، المبسوط أمامها . . وإلى الجانب الآخر من المصطلى ، جلس الملك فى مقعد كبير وثير ، وفى متناوله منضدة أخرى ، يحيط بها مقعدان صغيران ، أحدهما للوزير الذى يجىء لعمل ، والآخر لمحفظة أوراقه . . ويتحدث الملك ووزيره ، ويتناقشان ، ويتبادلان وجهات النظر . . وفى تلك الأثناء ، تكون الساحرة العجوز رابضة فى مكمنها ، تخيط . . تخيط بعناية ومثابرة وصرامة ، دون أن ترفع رأسها ، كما لو كانت واحدة من أولئك الجنيّات الثلاث *Les Parques* ، اللواتى كن ينسجن فى النار حياة الرجال . . . فكانت كأنها تنسج حياة المملكة ! . .

وتبدو مستغرقة فى شغلها اليدوى ، فلا يلوح عليها أنها ترى أو تسمع مما يدور حولها شيئاً . فى حين أن شيئاً من ذلك لم يفتها ، لا من كلام الوزير الذى يتحدث إلى مليكه ، ولا من طبعات وجهه المتعددة ، وتعبيرات أساريره المتغيرة . . والآن ، هاهى ذى تقابل أقوال هذا الوزير بما تعلمه من حقيقة فكره : ذلك أن لها بوليساً كامل العدة والعدد ، قلم مخابرات ، يحمل إليها أخفى ما يجرى فى سويداء قلب هذا الشخص أو ذاك . . وكذلك الملك :

لا يكاد الوزير يمضى عنه ، أو يكاد ينفرد بزوجته ، حتى يستعرضا ما كان ، ويستبينا هل خانهما الوزير ، أم مكر ، ومكرا ، وكانا هما شر الماكرين !.. وتبدى الجنية العجوز لصاحبها رأيها فى هذه الكلمة أو تلك مما قد يعثر به لسان الوزير شامیار ، أو الوزير بونشارتران . . أو تصف تلك الحركة التى أفلتت منه ، معبرة عن : نفاد صبره ، أو خيبة أمله ، أو فرحه . . مما تكون رصدته ، كالشهاب ، من « كوشتها » الحريرية الحمراء ! . . تلك هى بعض الخدمات المتواصلة السرية ، التى ينتظرها الملك منها . بل كان يقدّر أن مجرد وجودها كاف ليبعث خشية فى نفوس خدام الدولة هؤلاء ، بحيث ، إذ يشعرون بأنهم مراقبون مراقبة مزدوجة ، يتهيبون ، ولا يندفعون اندفاعاً أعمى فى تزييف خدمتهم ، وغش دولتهم ، أو خيانة مليكهم . .

وعلى ذلك ظل الملك ممسكا بأعنة وزرائه ، كما يمسك الفارس جواده باللجام . . وهذا هو تفسير هوايته : « أن يجعلهم يعملون أمامه ، تحت سمع مدام دى مانتنون وبصرها » . .

وهكذا كانت عليهم رقيباً حسيباً . . .

وكان الملك يسألها قبل هذا كله : ذلك الشىء الذى حاول عبثاً أن يجده بقرب خليلاته ، ألا وهو الثقة المتبادلة ، والتفانى المطلق . . يريد أن يرى بقربه قلباً وفياً يفضى إليه بالشجون ، والشواغل التى يختنق بها . . فعندما تدلهمّ أنباء الحرب ، وعندما تجيئه أخبار مقلقة أو مشئومة ، وعندما يقتضى الأمر الرضوخ لجباية ضرائب قاسية جداً يتذمر منها الناس ، لا يعرف الملك النعاس ، ويصبح فريسة للهموم والغموم . . لكنه بفضل ما أوتى من سلطان على نفسه ، يتمالك ، ولا يدع أحداً ممن حوله يرى اضطرابه

وانزعاجه . ويدهش السطحيون من هدوئه وسط هذه التجارب والمحن القاسية ، يزعمونه جامد الحس . هذا فى حين تكتب مدام دى مانتنون إلى البرنسس دز أورسان فى بلاط ملك إسبانيا : « إن الملك يكابر صحة وشجاعة ، وهو فى باطنه متألم إلى حد بعيد ، يكتم الألم بين جوانحه ، فى الصميم » . .

إنها تعلم ما لا يعلمه سواها . فهذا المستبد العاتى جاءها وليس فى قوس صبره منزع للسهام ، يلقى عندها بأحمال عذابه ، وأثقال كربه ، لا يكاد يخفى عنها عجزه وخوره . وإذا ما ساءت أحوال المملكة ، بكى أمامها ، وسألها كلمة عزاء . . فياله من مشهد ، ذلك التهالك من الملك الأعظم ، ويا له من دور تقوم به تلك الشيخة التى كانت بالأمس حارسة الدجاج ، لتشد من أزر ملك فرنسا ، وتعزيه ، وتنفخ من روحها فيه ! . .

* * *

هى إذن ملكة فعلية ، بإرادة الملك ، وإرادة الله . .

كانت محوطة بالدسائس . وكان عليها الصراع . إنها ليست لها صفة رسمية ، وما بلغت منزلتها هذه إلا بهوى ملك ، ولا يمكن أن تبقى فيها إلا عن ذلك الهوى . . حقيقة أن لويس الرابع عشر لم يكن ملكاً للأهواء الطائشة ، لم يكن السريع التأثر ، السهل الانقياد . . لكنه كان أدق ما يكون حساسية . . ما أسهل ما يستاء ، فإذا صدّ ، فلن يكون لصدّه ردّ !.. ولم تلبث الملكة الجديدة أن تبينت فيه هذه الخلال . فهو لم يكن يحاجيها أو يماريها ، أو يخفى عنها صدوفه عن كذا وكذا من تصرفاتها ، أو تأففه من كذا وكذا من طلباتها . . وبهذا يضعها عاجلا فى مكانها .

وفضلا عن أن قلب الملك لم يكن دائماً له أمان ، فقد كانت محوطة بكل ضروب الأعداء الذين يتربصون بها . وكان أعدى أعدائها بلا مراء : المركيزة دى مونتسپان ، الخليلة الموتورة ، التى بقيت فى البلاط ، رغم هجرها ، وظلت تسكن جناحها فى ڤرساى . وكان كل شىء يخشى من جانب هذه المرأة الضارية الطموح ، وكانت كل الأسلحة لديها حلالا ذلالا ، حتى السم الزعاف . . . ولم تكن مدام دى مانتنون تجهل ما دار فى « الغرفة الحامية » حول جرائم المركيزة . ولم تكن تجهل أيضاً أن هذه المرأة قوية بأولادها من الملك . . فربما داعبها الأمل المرجوّ فى الكر على قلب الملك ، والاستيلاء عليه ، والظفر به ، هى ، الخليلة السابقة ، من دون الخليلة اللاحقة ! . . أما أرملة الشاعر هذه ، الجنيّة البارعة ، فكانت من بعد النظر بحيث غزلت من الفجر غزلها ، ونسجت من الصباح الباكر نسيجها ، فاستأثرت منذ المهد بقلب أكبر أولاد الملك من المركيزة ، الدوق دومن . . وكانت تسميه « دوقها الصغير » ، وفى حسابها أن يكون يوماً المدافع عنها ، ضد أمه التى حملته وولدته . وكان نسجها محبوكاً ، إلى حد أن تلميذها أصبح قرة عين الملك . . وعقدت بين الولد الحرام ، حبيب الملك ، وبين مربيته السابقة : معاهدة . . ولا نقول : تواطؤ ، أو مؤامرة .

فكان دوقها الصغير يرد كيد أمه فى نحرها ، وكانت عن يده تمسك بتلابيب الملك . ومع هذا كله لم تكن مطمئنة . ولم تطمئن قطعاً إلا عندما طردت غريمتها من البلاط شر طردة ، أو كما قال سان سيمون الذى لا يبالى : « طرداً مرذولا » . . وعنده أن الدوق دومن هو الذى تعجل الأمور ، وبادر بإخراج أمه من قصر ڤرساى ، ملقياً بأثاثها فى عرض الطريق ! . . .

١٠

الملك رجل قوى متين ، فلا يحب المرضى ولا العجزة . فى حين كانت مدام دى مانتنون ، العليلة على الدوام ، شديدة الشغل بمعالجة حلقها ، وتدليك مفاصلها ، تتكلم بإسهاب ورضاً عن حقنها وأدويتها ، وزيتها الذى تدلك به أعضاءها ، زيت القديس فرانسوا ! . . هذه الصحة السقيمة ، كانت من أول أسباب الخلاف بين الزوجين ، لاسيما وأن مدام دى مانتنون لا تكتفى بأن تكون مريضة ، بل تريد أن يكون كل الناس حولها مرضى ! . . وكان هذا يغيظ الملك ، ويقلقه ، هو ، الذى لا يطيب له إلا الهواء الطلق ، ولا يحلم إلا بالصيد والقنص ، والتجول فى الغابات والأحراج ، والسفر والانتقال ، والحل والترحال . . وكانت امرأته ترتاع من تيارات الهواء . الملك يسافر والنوافذ كلها مفتوحة ، سواء كان الجو قيظاً ، أو كان البرد زمهريراً . . أما « ذات العينين العاصيتين » ، فتهلع ، من هذا ، وتضيق به ذرعاً ، فتحتج برقة صدرها ، وتحصل على إذن بالسفر وحدها ، فى مركبتها ، أو محفتها . . وسواء كانت فى المركبة أو المحفة ، فهى تغلق النوافذ والأبواب ، وتحكم إغلاقها كالقمقم المختوم . . وحين يريد الملك ، الذى يصحبها على القدمين فى نزهاتها ، أن يكلمها ، ترفع الزجاج قيراطين ، ثم تنزله فوراً ، خشية الزكام ! . .

امرأة تقبع فى عقر دارها ، لا تحول ، ولا تصول ، ولا تجول . . امرأة

مسقام (ممروضة)، معلولة، تؤثر مئة مرة لو لم تتحرك من عشها، أو تترك جانب مدفأتها، أو تغادر «كوشتها» أو سريرها..

وكانت تتذرع بألف حيلة ووسيلة، لتحول بين الملك وبين الخروج، أو مصاحبة الأميرات إلى مارلى، أو فونتنبلو، تتوسل بصنيعتها «فاجون»، الطبيب الذى لا يلبث أن يلبيها، ويسرد كل ما يخطر وما لا يخطر بالأوهام، من علل وسقام.. وكان هذا الطبيب القادر على كل شىء، يروع الملك من هذه الأخطار الوهمية، أو الحقيقية. فيخضع الملك، على مضض من تلك التى تحول دون كل خروج، ودون مسرات الرحلات والنزهات، ولا تحرم بذلك نفسها وحدها، بل تحرم منها الملك أيضاً، والحاشية جميعاً..

امرأة بيت متواضعة، لا طاقة لها بتكاليف البلاط، وأعباء القصور. كانت شقتها فى فرساى، كما كانت فى سان جرمان، أو مارلى، مفتوحة الأبواب، مباحة الجناب.. يقدمون إليها الطعام، ويخلعون ملابسها، ويضعونها فى فراشها، أمام الملك.. وعلى خطوتين منها يجلس هو ووزراؤه، يتناقشون فى الأحوال الجارية.. ثم هى تتوسل عبثاً إلى سيدها ومليكها، أن يسمح بوضع حواجز واقية من الشيش أمام النوافذ، فيأبى حتى لا يشوه جمال المبانى، وهو من هواة الفن الجميل.. ولا بد أن نعرف كيف نتألم من أجل الجمال!.. أما هى فتتذمر، وتشكو، وتكتب بذلك إلى البرنسس دزأورسان: «... ليس عنده إلا العظمة، والفخامة، والاتساق، والانسجام.. وعلينا أن نلقى هبوب الريح من النوافذ والأبواب، بصدر رحب، حتى يواجه بعضها البعض الآخر، فى اتساق!.. ولنهلك نحن، ضحية الانسجام!...»

ومع ذلك ، كانت تلجأ إلى الراحة فى بيوتها الخاصة فى فونتنبلو ، أو سان چرمان ، أو سان سير ، غير قصرها فى مانتنون . فتهرب من البلاط لتستجم وتستروح ، فلا يلبث الملك أن يتفقدها ، ويحن إليها ، ويشكو غيابها .

وكانت أشد ما تكون دقة فى رعايتها لمعاهدها الخيرية ، تفصّل تعليماتها فى رسائلها تفصيلا ، منظمة كل شىء ، حتى أصغر الصغائر ، حتى عدد الكعك والتفاح الذى يقدم للطالبات مع الشاى . . ولا تنسى ما فى تلك الدور من البقر ، والدجاج ، ولا ماينبغى من العناية بنظافة التلميذات ، من تفلية شعرهن ، إلى دعك أجسامهن ، إلى تغيير قمصانهن ! . . وكان الملك ، على حبه التفاصيل ، يكره منها هذا الاهتمام الطائل ، مقدراً أن ثمة شواغل أعظم ، ومهام أكرم ، تُنتظر من ملكة فرنسا .

لم تكن ملكة . لم تكن فى الحق ملكة باللقب ، ولا بالفعل . كانت رفيقة الملك ، ولم يكن لها قلب ملكة . كانت تعيش فى حيز ضيق كزّ محدود ، دون ما كانت عليه عندما كانت : مدام سكارون ، أرملة الشاعر المشلول . . كانت لا تكاد تستطيع السمو على ضعة الأصل ، وخسة النشأة ، ودناءة البيئة التى شبت فيها . . وكان شر ما ساء الملك منها قلة شعورها بالعظمة الفرنسية ، والكرامة القومية . كانت فى أثناء الحرب من شر دعاة التردد والهزيمة ، تنصح بالصلح بأى ثمن . . لم تكن ذات طموح سياسى : يلهب فى الملك العزم والحزم . . ولو أن لويس الرابع عشر أصغى إليها ، لوقّع انحلال فرنسا . . .

والقضية الثانية بينهما كانت : التقوى . هى تريد أن تجعل من الملك

ناسكاً ، وهو لا يأبى أن يكون تقياً ، لكنه يرى أن ملكاً متربعاً على عرش فرنسا لا ينبغى له أن يكون راهباً متوجاً . . ومع ذلك حاول إرضاءها فى هذا قدر طاقته ، يحضر معها بعض أعياد القديسين ، ويركع مصلياً ، (وله تمثال رائع يمثله جاثياً فى كنيسة نوتردام) . . وبلغ منها أنها أرادت أن تحمله على أن يمنع فى البلاط الروايات التمثيلية ، والمراقص ، والمرافع ، بل والحفلات الموسيقية . . وهنا انفجر فيها ، وهو المهوّس بالموسيقى ، فأعطى الجنيّة العجوز درساً : « اعلمى ، يا سيدتى ، أن الملكة والدتى كانت شديدة التقوى ، « تتناول » كل أسبوع . . ومع ذلك كانت تحضر حفلات الموسيقى هذه ، ولا ترى فيها ضيراً ولا كفراً »

ومن مآخذه عليها : أن يرى تلك التى اتخذ منها رفيقة وشريكة ومشيرة ، لا تعنى أقل عناية بالشيئين اللذين هما هويته العظمى : **الجمال** ، **ومجد الوطن** : أن يجعل فرنسا قوية مجيدة ، أن يبنى ويشيد ، وأن ينشئ الحدائق والبساتين ، ويرفع القصور ، ويقيم الدور التى تشرّف البلاد وتسعدها . . هذا هو وحده الذى عاش من أجله ، بينما يطيب لامرأته القول بأن جمال المنشآت لا يعنيها فى شىء ، بل هى لا تعيره التفاتة ! . . أية خيبة أمل أقسى ، لهذا العاشق العظيم ، من أن يجد تلك التى أحبها لا تشاركه ذوقه ، ومزاجه ، وهواياته ، وغرامياته ؟! . أليس هذا مما يصدّع صداقتهما ، ويزعزع الثقة المتبادلة بينهما ؟ . . زد على هذا كله ألوف الوعكات التى تجلبها الشيخوخة ، والاحتكاكات التى لا مفر منها فى أى عيش مشترك ، مما جرد الملك من جميل أوهامه ، وأبعد عنه سعيد أحلامه ! .

١١

أخيراً ، ضاق صدر الزوجين الشيخين ، كليهما ، من وثاقهما . . وكادت مدام دى مانتنون تزهق روحها خلال مرض لويس الأخير . . لم تعد ترغب فى غير الذهاب لتدفن نفسها حية بين جوانب معهدها الخيرى بسان سير ، وتستعد لسلام الروح فى افتراقها عن هذا العالم . . وكانت رسائلها تفضح ، من زمن ، نفورها وضيقها بحياة القصر ، بل ما هو أخطر من ذلك : فتورها إزاء الملك ، وانفضاضها عنه . .

ولم يكن هو أيضاً ليخفى زهده فيها . ولما كان على فراش الموت ، نطق مودعاً رفيقته العجوز بهذه الكلمات : « لقد أحببتك دائماً ، وكرّمتك » . . . كأن ذلك كان شيئاً خامرها الشك فيه . . والحقيقة أنه مرت بهما سنوات لم يكونا فيها متحابين ، لا يكاد يتحمل أحدهما الآخر .

* * *

كانت حياة لويس الغرامية قد ختمت من زمن طويل . وربما كان قد ودع الحب بوداع لافاليير ، إن لم يكن بوداع مارى مانشينى ! . حبه العذرى الأول تحول إلى هوى شهوانى مع المركيزة دى مونتسپان ، ثم إلى صداقة خالصة مع مدام دى مانتنون . . وقد أخلت به هذه الصداقة نفسها . ولعله حين مات ، كان قد تجرد تماماً من كل المودّات والعلائق البشرية .

صفوة القول أن غرامياته كلها خيبت أمله ، كما خيبت أمل خليلاته .

وكأنى بهن عوقبن جميعاً لأنهن أحببنه ! . . يالخاتمة حياتهن ، أولئك التعسات العاثرات ! . .

مارى مانشينى : أصيبت بلوثة من الجنون ، تتجول فى أوربا ، لتعرض خبلها الشريد ، حتى حبسها زوجها فى دير !

لويز دى لاڤاليير : بعد استشهاد عشر سنوات ، اندفنت حية فى غياهب دير الكرملين الموحشة الصارمة ! . .

المركيزة دى مونتسپان : كسيرة ، ذليلة ، تجر أذيال يأسها وبؤسها ، وتموت محوطة بأشباح جرائمها المروعة ، وهى ترتجف خوفاً من عذاب جهنم ! . .

مدام دى مانتنون : أضنتها خمس وثلاثون سنة فى تجلد وتعلل ، فلم تلق عن كاهلها حملها ، إلا لتقضى نحبها ! . .

دون چوان : زهق ، واختنق بكل هذه الشدائد والمكائد ! . . فدار دورة حزينة حول نفسه ، وقد تبلد حسه ، يرى ما بذر من نكد ويأس فى النفوس ، وما حصد من هم وعبوس ، ثم هو بعد هذا لا يشعر إلا بقلب فارغ ترِح ، كأن لم يمر على شغافه حب ولا فرح ! . . .

أليس هذا هو عدل الله ، وقصاصه لهن ، وجزاءه له ؟ . .

ليس لنا أن نحول الإنسان الذى ميزه القدر ، عن طريقه . . وكذلك هو ، يلقى آثامه ، لو حاد قليلا عن سواء السبيل . . .

على أن هذه الأخطاء لم تكن عند الملك إلا نافلة عابرة . . كانت مراميـاته البشرية تخذل دائماً ، فى فؤاده ، وتهزم أمام الحب الأعظم :

حب المجد . . لم يكن عنده لشيء غير الدولة كيان أو وجود . . أو كما كان يقول : « المصلحة العامة هى التى خلقنا من أجلها وحدها » : أى مملكته ، ورخاؤها ، وعظمتها . .

فيمكننا أن نؤكد ، إجمالا ، أن لويس الرابع عشر لم يحب أبداً إلا بلاده . وأنه فضل بلاده على كل النساء اللواتى من لحم ودم . . واختارها ، من دونهن ، عروساً ! . .

على أى حال ، فهو لم يفكر ، حتى ساعته الأخيرة ، إلا فى الدولة : خدمها إلى النهاية ، حتى على فراش احتضاره ، مهموماً ، قبلما يصعّد النفس الأخير ، بأن يكفل لمملكته سلاماً دينياً ، ويجنبها اضطرابات الأقلية . . . وهو ، بعد إذ أتم تسوية هذه المهام العليا ، اتجه إلى الله . . . دون أدنى مخافة ، ودون أدنى طنطنة ، اتجاه المرء الواثق من طمأنينة القلب ، وراحة الضمير ، واطمئنان الملك ، الذى ، من خلال الأخطار والسقطات ، لم يرد إلا خير شعبه . . وقد بكى هذا الملك الأعظم : لأنه لم يعرف كيف يكون المثل الكامل : الذى صوره الخلاق الأعظم . . .

والآن ، وقد قوّست السنون عوده ، ألقى عنه حمله الذى أنقض ظهره ولم يعد يؤمل إلا فى الراحة بعد ما أدى مهمته . . ولا نزاع فى أنه ما من ملك بين ملوك فرنسا قد أحب صناعته مثله ، أو انصرف إليها بمجامع قلبه ، على نحوه . . بحيث لم يكذب هذا العاشق العظيم لبلاده عند ما كتب فى مفكراته هذه السطور ، التى هى بمثابة وصية الرجل الصبّ :

« إذا حدث أن سقطنا ، على رغمنا ، فى وهاد هذه الضلالات

(ضلالات الحب !) ، فينبغى لنـا ، على الأقل ، لـكى نخفف من العاقبة ، أن نرعى الحيطة والحذر فى شيئين : أولهما : ألا يكون الوقت الذى نعطيه لغرامنا على حساب أعمالنا ، فيعطلها ويلحق الضرر بنا . وثانيهما : أدق منالا ، وأصعب معالجة واحتمالا ، وهو : إذا أسلمنا قلوبنا ، فعلينا أن نظل مالـكين تماماً قياد عقولنا . . . »

* * *

حقاً ، إن هذا الملك لم يكن دائماً يتبع كلام ربه . . وكان أول من يتهم بذلك نفسه . . لـكنه عمل دائماً ، وعاش ، رجلا شريفـاً ، بل ملـكا شريفاً . . أدى واجبه أمام التـاريخ ، فصار الملك الأعظم ، وصار عصره العصر الأعظم . . .

ولقد مات فيصل أوربا هذا بطلا ، بعد ما عاش للنساء دهراً . . .

ولقد أحب وطنه فوق كل حب ، فمـات قديساً . . .

150643204
b13202200

فهرس

الكتاب الأول

مدرسة الحب والسياسة

صفحة

١ — كان حبه عذرياً ٥
٢ — كان حبها مادياً ١٦
٣ — فى مدرسة السياسة ٢١
٤ — فى مدرسة الحب الثانوية ٣٧
٥ — فى مدرسة الحب العليا ٥٠
٦ — مأساة السموم ٧٢

الكتاب الثانى

مدرسة الحب والحكم

٧ — حرب بين امرأتين ٨١
٨ — المربية تفوز على السيدة ٩٤
٩ — الرجل رجل ولو كان ملكاً ١٠٢
١٠ — الحب بين الجمال والمجد ١١٦
١١ — نزاع العقل والقلب على العرش ١٢٠

شركة فن الطباعة
صندوق بوستة ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩

UC - LIBRARY

DATE D

DC
129
M8

10000105190

DC
129
M8